روايات تاريخ الجزائر



أحمد باي

نسر من الشرق



كفاح جرار

رواية

روايات تاريخ الجزائر

كفاح جرار

أحمد باي

نسر من الشرق

الطبعة الأولى

منشورات الأنيس

الجزائر

منشورات الأنيس

للنشر والتوزيع

تعاونية العلم رقم 17 جنان عشابو

دالي ابراهيم – الجزائر العاصمة

هاتف: 58 02 29 023

فاكس: 57 02 29 023

المحمول: 84 08 57 0661

elaniseditions@hotmail.fr

الإهداء

إلى فتية كانوا وأصبحوا وسيكونون صناع تاريخ، إلى كل من كتب حرفا واحدا في سجل الوطن العريق، وإلى الفئة الصامتة التي عملت واجتهدت ولم تطلب أجرا ولا شهادة ولا امتيازات.

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذه السلسلة، وإلى ابنتي فيوزة التي عشقت الورقة والقلم منذ نعومة أظفارها.

كفاح

في التاريخ لا معنى أبدا لكلمة "لو" فقد وقع الحدث وعلى الآخرين أن يدرسوه ويشبعوه نقدا وتمحيصا وتدقيقا، ولكن، كما قال الباحث التاريخي، لو تجاوز الحاج أحمد عنجهيته، وتجاوز الأمير عبد القادر عناده، هل كانت القوات الفرنسية الاستعمارية ستتمكن من بسط نفوذها وسيطرتها على كامل التراب الجزائري، ومن بعده المغاربي؟.

الإجابة صعبة جدا، لكنها شرعية ومشروعة، والسؤال لم يكن من المحرمات أبدا رغم قساوته.

المؤرخ الإنسان

مقدمة

لكل أمة وشعب من أهل الأرض، شجرتهم التي يحبون ويشتهون، حيث يعتبرونها رمزا لهم ومعبرا عن تطلعاتهم، وقد تكون الشجرة حالة تاريخية مستمرة ومتكررة، بها تتعلق الآمال ولها تبذل التضحيات.

اليابانيون يحتفون بالكرز، وفي الصين والهند يحتفون بجوز الهند والقرفة، وغيرهم يرقصون للسرو، ومنهم من يتغنى بالأرز، ولأننا مثلهم من أهل الأرض، نغني ونحتفي بالنخيل والزيتون، فلا غرابة إن حسدنا الناس على ما لدينا.

تاريخنا شجرة زيتون معمرة بطعم التمر.

وهل التاريخ إلا مدرسة نتعلم منها، كما سيتعلم منها من سيلحق بنا، فكما كان غيرنا لنا تاريخا سنكون نحن لغيرنا كذلك.

تاريخنا الوطني والإقليمي تصعب الإحاطة به لغناه وتنوعه ولعمق جذوره التاريخية، وقد كنا قسمنا تاريخ الجزائر إلى أربع مراحل رئيسية، أولاها تتعلق بالتاريخ الأمازيغي ولغاية بدء المرحلة الإسلامية، التي افتتحنا بها مرحلة تاريخية جديدة بدأت بالدولة الرستمية مرورا

بالمرابطين والموحدين وغيرهم ولغاية الفترة العثمانية الأولىٰ، لتبدأ بعدها مرحلة تاريخية أخرىٰ استطالت علىٰ مدىٰ التاريخ الحديث بداية من المناوشات مع العدو الفرنسي، ولغاية أحداث 8 ماي 1945 التي فتحت صفحة نوفمبر، بعدما سقط نهائيا أي حديث للحوار والتفاهم مع السلطة الاستعمارية الفرنسية.

وما يتعلق بالسلطة الوطنية لن تكف فرنسا عن كونها عدوا متربصا بنا، وإن سادت بيننا علاقات هادئة وسلمية وتعاون اقتصادي وثقافي، غير أن الجرح لن يندمل أبدا، هو جرحنا من استعمار هو الأشد قساوة علىٰ مدىٰ التاريخ الإنساني، مارس فيه القوي المتجبر علىٰ الضعيف المهادن شتىٰ صنوف القهر والتنكيل، وهو جرح المستعمر الذي لم يهضم فكرة تمريغ أنفه بوحل الهزيمة علىٰ يد حفنة من الرجال، ظل حتىٰ اللحظة الأخيرة يردد أنهم قطاع طرق، وشرذمة من المغامرين، ودعاة إرهاب همجي، ولغاية اليوم لم تعترف فرنسا بخسارتها النهائية والأبدية للجزائر.

ثم تبدأ المرحلة التاريخية الرابعة من مجازر سطيف وخراطة وغيرها بيد القوات الاستعمارية ولغاية

الاستقلال، الذي تحقق بفوهات البنادق التي مثلت صلابة الإرادة وقوة العزيمة والصبر ثم الصبر، من رجال نهضوا فاحتسبوا وتوكلوا، فاستجاب الرحمن لهم، لأنهم حققوا بوقفتهم شروط النصر.

إذن من مقاومة الحاج أحمد باي، مرورا بمقاومة الأمير عبد القادر الذي كان بحق مؤسس الدولة الجزائرية الوطنية الحديثة، ومنه إلى ثورة القبائل، المقراني مثلا، وثورة الصحراء، الشيخ بوعمامة والشعانبة الحربيون، وثورة الغرب، بومعزة، ثم ثورات الشرق المتواصلة، هي مرحلة تاريخية مهمة جدا، تبلورت فيها ملامح المستقبل، وإن خلال مدة طويلة تجاوزت سبعة عقود، تمكن فيها الجزائري من معرفة نفسه وقدراته جيدا.

والسؤال هنا، ماذا كانت تمثل لنا مقاومة الباي الحاج أحمد القلي، حيث تمادى بعضنا في نقده إلى درجة التجريح، فاعتبروا مقاومته مشكوك بها ومشبوهة، ملمحين إلى "انتمائه" التركي، فهل كان ذلك حقا، أو هو التجني وربما التشويه المقصود والمتعمد لرجل لم يكف عن التأكيد دوما على جزائريته، أو على الأقل انتمائه للمجتمع الذي ولد فيه.

تمهيد

يخطئ من يظن أن احتلال فرنسا للجزائر، كانت نتيجة ثورة غضب، أو كرامة مهدورة لقنصل وقح، أو حتى بسبب صفقة تجارية بخلت أو عجزت حكومة باريس عن سداد ثمنها، فكل تلك مبررات واهية لا يتحدث فيها غير الحمقى وأضرابهم، والذي كان يحدث يومذاك هو ما سماه الأوروبيون لاحقا، اقتسام تركة الرجل المريض، الذي كان يومها على فراش الموت.

فقد كان مشروع تقسيم أملاك الإمبراطورية العثمانية الذي قدمه الوزير الفرنسي دي بولنياك موضوعا على مكتب الملك شارل العاشر بتاريخ 18 أوت 1829، وكان يرمي إلى تحقيق أهداف استراتيجية داخل أوربا وخارجها، والذي يعنينا هنا ما يتعلق بوضع حد للتوتر بين الجزائر وفرنسا والإلحاح في هذا المشروع ليس على تأديب داي الجزائر بعد حادثة المروحة الشهيرة والإلحاح على مسألة الديون، وإنما لأن قادة فرنسا وجدوا في

مشروع الغزو فرجا ومخرجا لهم من أزمة اجتماعية واقتصادية كانت بلادهم تتخبط فيها.

وقد أعلم السفير الفرنسي في إسطنبول الباب العالي رسمياً بنية بلاده في القيام بالحملة على الجزائر وذلك بتاريخ 30 مارس 1830.

وتذكر المصادر التاريخية أن تعليمات سلمت إلى دي بورمون يوم 18 أفريل 1830 أمر فيها بتسليم ولاية الجزائر إلى الباب العالي بعد أن يقضي على النظام السياسي القائم فيها، والهدف من وراء ذلك هو التعبير عن النوايا الحسنة لشارل العاشر مقابل أن تكتفي فرنسا بالسيطرة على المدن الساحلية لضمان حركتها التجارية والحربية مع الجزائر.

ويظهر أن نية دي بورمون القائد العام للحملة ودوسي وزير الحربية كانت هي الاستيلاء على الجزائر والاحتفاظ بها، لهذا أمر وزير الحربية وحدات الأسطول الفرنسي باحتلال الموانئ وأيده دي بورمون الذي سبق وأن أفصح عن نيته من بداية الحملة قائلاً: إن فرنسا

ذاهبة لأخذ الجزائر ولإنشاء مستعمرة فيها ولتأسيس حكومة فيها يرأسها أمير فرنسي.

وهكذا فقد اتشحت الحملة الفرنسية بالغموض، ولم تحمل أهدافا حربية محددة، وهذا ما نلمسه في الوثيقة التي لم تشر إلى مصير السيادة في الجزائر ولمن تكون.

كما تضافرت الظروف الداخلية ضد الأتراك، فقد أصيب النظام الإداري والاقتصادي وحتى الاجتماعي بالصدأ والاهتراء، ولم يكن الجزائريون راضون عن هذا الحكم، الذي استبد وطغى، فقد سادت المظالم الاجتماعية في عهد البايات وكان سكان العاصمة أول المتضررين منها، وكان كثير من المتعلمين والمثقفين يتحين الفرصة لتغيير الأوضاع القائمة، حتى أن بعضهم وجد في الجيوش الفرنسية فرصتهم المواتية للقيام بما عزموا عليه، فمالوا إلى الطرف الفرنسي.

ولعل هذا التعاون مع الفرنسيين، يعود إلى تأثر الأهالي بالبيانات والمنشورات التي كانت السلطات

الاستعمارية توزعها على السكان للتأثير على معنوياتهم، وإقناعهم بقبول الواقع الاستعماري وبأن الهدف من هذه الحملة هو إنقاذ الجزائريين من ظلم الأتراك.

وما يتعلق بوثيقة الاستسلام التي وقعها الداي حسين، فإننا نجد فئة تبنت الموقف السياسي وقبلت التفاوض مع الاستعمار، وتمثلت هذه في ألمع العناصر من أعيان العاصمة، وفي مقدمتهم حمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة وحمدان بن أمين السكة.

وكان أحمد بوضربة مثلا ينتقد الإدارة الاستعمارية، وكان يتمنى التعاون معها مدفوعاً في ذلك بالرغبة في أن يندمج الجزائريون في الحضارة الأوربية، وفي تكوين نظام فرنسي بالجزائر على غرار الأنظمة الأوربية القوية، ولايكون ذلك في رأيه إلا بالاستيلاء على كامل البلاد وفرض الضرائب بقوانين ثابتة ومعقولة على القبائل على أن يعين آغا فرنسياً عليهم لأنه سيخدم فرنسا بإخلاص.

واشترط لنجاح هذه الخطة أن تعود المساجد إلى ما كانت عليه في العهد العثماني لأن ذلك في رأيه سيقلل من نفور الجزائريين من الفرنسيين.

وقد عبر أحمد بوضربة عن استعداده للتعامل مع السلطات الفرنسية منذ الوهلة الأولى، وهو أحد الذين كانوا مع حمدان بن عثمان خوجة قد تفاوضوا باسم الداي حسين مع السلطات الفرنسية بشأن شروط الاستسلام.

أما الفئة الثانية فقد قامت بالمقاومات الشعبية المسلحة ضد الاستعمار، وقادت الفئة الثالثة المقاومة المنظمة، ولعل من أقوى الأسباب التي دفعت أحمد بوضربة إلى مساندة فكرة حكم فرنسي للجزائر، هو أمله في انتعاش تجارته وخشيته من عودة النظام التركي، الذي يعتبره السبب في كساد تجارته وإلحاق الضرر بأفراد أسرته، فقد كان للمصالح الخاصة والدفاع عنها، دوره في قبول فكرة التغيير السياسي بيد قوى استعمارية، طالما ستكون النتيجة حسب رؤية هؤلاء تقدم البلاد وتطورها.

قبل دخول دي بورمون العاصمة بأيام قليلة استدعى القنصل البريطاني في الجزائر، وطلب منه أن يطلعه على أخبار الداي حسين وذكر له أن (أي تقتيل قد يتعرض له المسجونون الفرنسيون لدى الداي سيدفع الداي وأفراد عائلته رؤوسهم ثمناً له، وهو ما يفسر تركيز الوثيقة على ضمان الحماية للداي وأفراد أسرته خاصة وأن الداي قام بتصفية عملاء فرنسا الذين كانوا يعملون على توسيع شقة الخلاف بين الأتراك في الجزائر.

وتكشف السجلات اليومية للقنصلية البريطانية أن القوات الفرنسية استغرقت أكثر من أسبوعين (من 14 إلى 30 جوان) في قطع المسافة بين سيدي فرج والتلال المطلة على العاصمة وهذا نظراً للمقاومة العنيفة التي واجهتهم، والتي لم يكن وراءها الجيش التركي ولا القوات النظامية، وإنما سكان الجبال الذين تواردوا على المتيجة لمقاتلة الغزاة الفرنسيين وقد كانت تنقصهم المعرفة بأساليب الحرب الحديثة وإلا لاستطاعوا أن يردوا القوات الفرنسية على أعقابها على حد تعبير القنصل البريطاني.

وكانت خطة الداي حسين تقضي بمواجهة الغزاة الفرنسيين عند أبواب العاصمة، حيث توجد الحصون المنيعة والجيش النظامي.

وقد كانت معركة حصن الإمبراطور على أبواب العاصمة هي المعركة الحاسمة التي استبسلت فيها الفرق النظامية في القتال ضد الغزاة الفرنسيين.

فقد بدأت هذه المعركة في الساعة الثالثة صباحاً واستمرت حتى العاشرة من يوم 5 جويلية 1830 ودخل الغزاة الفرنسيون العاصمة على الساعة الواحدة بعد الظهر.

وتذكر الحوليات البريطانية أن الداي حسين، استشار القنصل البريطاني عدة مرات مستفسراً عن الغرض الحقيقي للفرنسيين من احتلال الجزائر.

وعندما انهزم جيشه استفسر للمرة الأخير القنصل البريطاني عن مدى إمكانيات الصدق في دعوى دي بورمون احترام ممتلكات الجزائريين وعقيدتهم، فكان في جواب القنصل ما يفيد أن الفرنسيين ربما نصدقهم في مثل هذا القول تجاه الأهالي على الأقل، أما تجاه الداي شخصياً

فذلك أمر لا ريب فيه على الإطلاق، وعند حصوله على هذا الجواب من القنصل البريطاني وضع الداي ختمه على الوثيقة التي تتضمن شروط الاستسلام بحضور القنصل البريطاني الذي حمل تلك الوثيقة في الحين إلى دي بورمون.

ما من شك أن الأتراك تقاعسوا في الاستعداد لمثل هذه الظروف، ويتحمل الحكم يومها المسؤولية كاملة عما حل في البلاد من خراب، فقد كان لدى الداي الفرصة الكافية ليس فقط لدحر المعتدين، وإنما أيضا في ملاحقتهم حتى شواطئ بلادهم، ولكن ما حدث يدل بجلاء على تقاعس هؤلاء، وكأنهم يحكمون قوما ليسوا منهم، وأرضا ليست بأرضهم، وبالتالي فلا ضير عندهم إن خسروا أو ربحوا، مع أن الربح والانتصار كان يعني لهم، مزيدا من السطوة والغلبة والنهب، وتلك كانت سياسة الاقطاع والامتيازات، فلم تكن تحركهم لا العواطف الدينية ولا النزعة الوطنية، ولا حتى أخوة اللحمة الاجتماعية، لقد طغت عليهم إذن روح الفردية والأنانية، وكانوا يركنون إلى أن لهم بلادا في تركيا قد يلجأون إليها وقت الحاجة، بما معهم من أموال وثروات.

القافلة القسنطينية

جاء إلى عاصمة الإيالة وهي دار السلطان وهو يمني نفسه بإقامة طيبة بين أصحابه وأحبابه، فقد غلبه الشوق للأهل والأصحاب والخلان، وتاقت نفسه للراحة والترفيه، فهو يعشق سهل متيجة بجنانه ومزارعه وضياعه، ويعشق البحر وصيده، وقد مضت مدة طويلة لم يركب البحر أو يداعب شجرة توت وارفة، لذلك ومن غلبة الشوق على قلبه، لم يتوقف إلا في محطات قليلة وهو يمني النفس براحة طويلة عذبة.

اكتفى موكب الباي بالتوقف قليلا في بايلك التيطري عند برج عزوز وبعدها المدية، عطفا منه على رجاله ودوابه، ولم يجد سببا يدعوه للتوقف أكثر خلال المسافة الطويلة التي قطعها من قسنطينية إلى قصبة العاصمة، وكأن شيئا في عقله كان يدفعه للإسراع في القدوم، فاستحث رجال موكبه على الصبر والمتابعة رغم قساوة الطريق ومشقتها البالغة.

أخذ يمتع بصره بمنظر العاصمة من بعيد، وهي تتربع كالحمامة البيضاء الخجلى بين البحر بزرقته اللامتناهية التي تشق صدر الفضاء، والجبال الخضراء الداكنة، التي تقف وراء العاصمة كسد طبيعي أنيق وبهي، وما بينهما يمتد سهل متيجة بمزارعه الغناء، وهو أشبه ما يكون بنهر النيل الذي زاره وأحبه ذات يوم، عند نزوله ضيفا على والي مصر محمد علي، لكن هذا النهر يمتد كبساط أخضر فيه بعضا من رائحة الجنة وخيراتها.

فوجد نفسه يسبح ويمجد باسم الرحمن على هذه النعمة الوفيرة والخيرات المباركة، كان ينظر بمتعة وشوق إلى تلك المناظر البهيجة، وكأنه يراها لأول مرة في حياته، أو كأنه لن يراها بعد ذلك أبدا، فكان يملي بصره منها، بشغف وحنان، فكم هو شاق على الرجل أن يحظى بحبيبة جميلة معطاءة وسخية، فليس الحصول على مثل هذه الغادة بالأمر السهل والهين، لكن على الرجل أيضا أن يبذل جهدا مضاعفا للحفاظ عليها، والتمسك بها،

سواء كان لجهة إرضائها هي شخصيا، أو صونها من أعين الحساد والمتربصين، ولا يقدر على مثل ذلك إلا الرجال الذين يقدّرون نعمة الجمال، ويعرفون كيف يستعملون كنزهم فيما يسعدهم ويفرح من حولهم، وإلا أي نفع للكنز إن بقي على حاله كنزا؟.

تلك كانت حكمة الحاج أحمد، الذي شب وكبر يتيما بين أحضان أنثى تعطي وتمنح ولا تطلب، وهي أمه رقية، فشرب مع حليبها معنى الوطن والأرض والبيت، فكان عربيا أكثر منه كرغليا، وجزائريا أكثر منه تركيا، وقد علمه حضن أمه معنى الانتماء والهوية، وأهمية الحفاظ عليهما أيضا.

كان إذن ينتمي إلى الجميع، وصاحبا للجميع، لكن حنينه وعواطفه كانا دوما مع الصحراء وأهلها، فكان شاعرا وفارسا في وقت واحد، وحاكما ومسؤولا وواحدا من الرعية، فقد لاقى من أبناء عمومته ما هو أسوأ مما لقيه العرب وإخوتهم الأمازيغ من أولئك الترك، وقد

كادت رقبته تطير أكثر من مرة، لـو لم يجـد في أحبتـه مـن الجزائريين ملجأ وملاذا وحاميا.

وكـان لنشـأته الدينيـة دورهـا في صـقل شخصـيته، أضفت عليه طابعا مـن الحميميـة والوجدانيـة والصـلابة، وتلك المناظر الخلابة التي يراها، كان يحس بها ويستشعرها كأنها بعضا منه، وهو جزء منها، ورغم الظـرف العصـيب الـذي كانـت تمـر فيـه الإيالـة، لم تـتعظ الطبقـة الحاكمـة وحاشيتها ، فيسلكون الطريق المستقيم، وإنـما اسـتمروا في دسائسهم ومؤامراتهم، وكـأن مصـير الـبلاد لا يعنـيهم في شيء، وإنما هي عندهم مزرعة يجنون خيرها، ثم يكسـرون شجرها، ويتجبرون على فلاحيها، دون شكر أو كلمة ثناء، وعند الحاجة، وعندما تشتد الملمات، كانوا يتـذكرون أبنـاء الوطن، فقط للقتال والحراب.

تلك والله مصيبة المصائب، كما قال الباي هامسا لنفسه، نحرث عليهم ثم نسوقهم آخر النهار إلى المسلخ للذبح، ثـم تذكر نفسه، فقال بصوت خافت، بل هم من يفعلون وليس أنا على أية حال.

كانت القافلة قد انطلقت من قسنطينة عاصمة بايلك الشرق، في أواخر شهر أفريل من عام 1830، وقد جاء الصيف مبكرا، فحمل معه الخير والحرارة ومعهما الهناء، وأكثر ما كان يخشاه أنه حمل أيضا سفن الغرباء، التي ما زالت تحاصر شواطئ المدينة، وبعض أهلها عن الخطر غافلون.

وكان يطيب للحاج الباي، قضاء جزء من راحته السنوية في العاصمة، فهي دار السلطان، ومستودع الخير والأمل، وتلك عادة درج عليها منذ توليه هذا المنصب، وقد اتخذه سيد العاصمة وحاكمها صديقا ينتفع بحديثه وحكمته، ونصائحه الخالية من الغش والنفاق، ولكن أية راحة هذه التي جاء يبحث عنها، وهو يعلم بفطنته وخبرته، أن هذه الأزمة ليست كغيرها من الأزمات والمحن، وإن لم يجر معالجتها بحكمة وروية، فسوف تكون نتائجها وخيمة، وعاقبتها سيئة على الجميع.

كان يتمنى ساعتها، لو أن الداي يفتح قلبه له، فيسأله النصيحة والمشورة، ثم يأخذ بهما، لكان تبرع هو بنفسه

للذهاب إلى باريس لحل هذه المشكلة التي طال أمدها، ولم يكن يشك أبدا في قدرته على ذلك، فقد خبر التجارب والمحن والمتاعب، وعركته الأيام مذ كان فتى صغيرا، واكتسب من سفره خبرات جليلة، لم يتسن لأترابه وأنداده ما أتيح له من فرص للعلم والمعرفة، فكانت زياراته لبلاد الشام وتركيا ومصر، مصدر ثراء وغنى له، وهو كما يقول عن نفسه، كلما عرفت عادات الناس وطبائعهم، اكتسبت خبرات جديدة دون أدنى عناء.

كان على رأس الجبل والعاصمة في الأسفل بعيدة هناك، كعذراء يتربص بها الغادرون، وكم كانت جميلة وقد اختلط عمرانها في الماء الأبيض مع أفق بهي فيروزي، فتمنى لو أن هذا البحر يشتعل نارا على المختفين هناك وراء الأفق، لكن الأمنيات لا تتحقق إلا بالعمل، وقد جاءها الباي محملا بأموال لا يدري إلى يد من ستؤول، وكان يمني النفس أن يستفيد منها الداي لمعالجة هذه الأزمة، فربما يمكن إنفاقها في طرق الجهاد وهو ما جعله

يتعجل إحضارها، ولكن ماذا لو وصلت لحكومة الفرنسيس؟ هز رأسه وكأن بعوضة لسعته، طاردا الفكرة برمتها من مخيلته، فلا يعقل أبدا أن يتركهم يتنعمون بثروة البلاد، لأن هذا يعني بالنسبة له على الأقل، اضمحلاله وتلاشيه، فكيف يسمح لمعتد بسلب البلاد ثروتها وهو الحاج أحمد على قيد الحياة؟.

اقترب الموكب من العاصمة أكثر، فأصبح بإمكانه تمييز بعض ملامحها بدقة، إنها كما تركها في زيارته الأخيرة، مدينة تضج بالحياة والأمل والعمل، ولكن في تلك الزيارة لم يكن هنالك حصارا ولا أزمة حياتية ولا نقمة داخلية يكاد يسمع أزيز مرجلها، وهو الذي جاء مساندا ومعاونا وربما مقاتلا..من يدري..سأل نفسه، ويتمنى لو يسعفه الحظ، فيتمتع بقليل من الراحة والهناء، وهو ما تتوق نفسه لتذوقهما، لكن الحاج أحمد اليوم ليس هو نفس الحاج في الأيام الخوالي، على أقل تقدير في تلك الأيام كان يتحمل مسؤولية نفسه فقط، وهو اليوم راع ومسؤول عن رعيته، كما قال موصيا مستشاره ووزيره

وصديقه علي بن عيسى، لكن هل يفقه هؤلاء الذين يحكمون دار السلطان معنى أن تكون راعيا يحمل على عاتقه هموم أمة بأسرها؟.

لو كانوا يعرفون، أو أرادوا أن يعرفوا، لما كان هذا حال الإيالة، والكل طامع في بعضها، أو يعمل لمصلحته وحده، ولا يعنيه أبدا ما سيكون من ورائه.

نظر الحاج أحمد إلى ذلك البساط المائي البعيد، وقال بصوت متهدج، رحمك الله تعالى وتغمدك بلطفه يا ابن زياد، البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وما لكم والله إلا الصدق والصبر، هيه هكذا حقا يعيد التاريخ نفسه، بصور شتى وأشكال مختلفة، ولكنه بالتأكيد يعيد..ارتفع صوته وهو يقول، نعم يعيد نفسه، والأحمق فقط من يقول بغير ذلك، انتبه سائق العربة إلى صوت الباي، فقال: أتأمر بشيء يا مولاي؟.

قال الباي: نعم توقف قليلا، لقد تاقت نفسي للصلاة، وكانت صلاة العصر على الأبواب، فنزل وتوضأ وهو يهمهم، لا يضر مع أني حافظت على وضوئي، لكن

الوضوء على الوضوء نور على نور، هكذا علمنا حبيبنا وسيدنا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، أقام صلاته منفردا على غير عادته، فقد كان في مثل هذه الحالات يصلي مع جنده وفرسانه وعماله، لكن زحمة الأشجان والذكريات والخوف من الآتي، جعلته يصلي منفردا، ربما كان بحاجة إلى خلوة مع نفسه، أو كما يشعر في قرارة نفسه يحتاج إلى ساعة صفاء مع ربه، ربما يجد بعدها راحة وطمأنينة، ثم إنه يحمل أمانة ثقيلة يجب أن يسلمها إلى أصحابها، غير أن التوتر والقلق أربكا نيته، فلا يمكن تصور أن تؤول تلك الأموال الذهبية كلها إلى الكفار الأجانب، بيد أن عليه تسليم خراج البيلك إلى الداي حسين، وهو ساعتها المسؤول عن مصيرها.

مضت فترة طويلة على آخر زيارة له إلى الباشا، رغم تواصلهما البريدي الدائم، لكن لم يدر في خلده أن هذه ستكون المرة الأخيرة التي يشاهد فيها صديقه الداي، وقد كان صاحب فضل عظيم عليه، وله أيادي بيضاء

بعنق الباي لا يمكنه تجاهلها أو نسيانها، فهو الـذي مكنـه من أعداء والده القتيل، الذي لم يعد يتذكر سوى ملامحه، وجعل له منصبا يتقاتل عليه الكراغلة والترك.

كانت العربة تسير متأرجحة بين وهاد البليدة، والحاج يستذكر تلك الأيام الخوالي التي قضـاها في هـذه المدينـة، والحق كانت قدم خير عليـه، وكـان هـو لها بالمثـل، فبعـد الزلزال الذي ضرب البليـدة في مـارس مـن عـام 1825، ساهم الحاج في عمليات النجدة، فـأبلى فيهـا بـلاء حسـنا، لعب أثناءها دورا هاما في عملية الإنقـاذ، إلى درجـة نالـت إعجاب الآغا يحيى قائـد جيش الـداي، لما رأى فيـه مـن الخصال الحميدة، فنقل هذا الإعجاب إلى الداي حسين.

وبوساطة من الآغا يحيى، عينه الداي حسين بايا على بايلـك الشـرق في عـام 1826، فشـهدت قسـنطينة استقرارا كبيرا في عهده تمكن خلالها مـن توحيـد القبائـل الكبيرة والقوية في الإقليم الشرقي عن طريق المصـاهرة، فلقد تزوج هو شخصـيًا مـن ابنـة البـاي بـومرزاق بـاي

التيطري، ومن ابنة الحاج عبد السلام المقراني، كما شجع كثيرا ربط الصلة بين شيوخ القبائل أنفسهم بالمصاهرة، مما جلب إليه محبة ومودة أولاد مقران في مجانة، وأولاد عزالدين من زواغة، وأولاد عاشور من فرجيوة، إضافة إلى أخواله في الزيبان.

وبينما هو شارد في ذكرياته، استفسره قائد الموكب إن كان يرغب في الاستراحة قليلا أو يدخلون العاصمة إلى مقر الحكومة، فأمره الباي بالتوجه إلى محل إقامته في القصبة.

يقع مقر إقامته في أبهى أحياء العاصمة وأكثرها رفاهية وأرستقراطية، ولم تكن بعيدة عن قصر الداي الواقع في القصبة السفلى، التي تضم بالإضافة إلى ذلك، مسجدين وقصرا ثانيا ومخزنا لملح البارود.

أما قصر الداي فيقع في الزاوية الشمالية الشرقية للقصبة، إذ يعود تاريخ بنائه إلى القرن 16، وقد احتفظ خلال القرنين 17 و 18 بوظيفة عسكرية كما كان مقرا

لمجلس الديوان، وكانت حامية من جيش الانكشارية تحرس القصر.

يمكن الدخول إلى القصر عبر مدخلين رئيسيين، واحد يؤدي إلى الساحة عبر باب مغطى بقبو، أما الثاني فيربط الطريق بباب متعرج المدخل وهو ما يحفظ الحياة الخاصة لساكني القصر، هذه التقنية التي كانت شائعة في العهود القديمة، تستعمل في العمارة السكنية والعسكرية على حد سواء، يؤدي المدخل المكوع إلى قاعة وسطى مزينة بنافورة من الرخام وبقبة نصف دائرية زينت جدرانها بالزليج والصباغات.

تحيط بالساحة المستطيلة التي تشكل نواة القصر أربعة أجنحة مبنية على ثلاثة طوابق، ويضم القصر شقق الداي وجناحا خشبيا صغيرا ذا زخرفة غنية، وفي هذا الجناح بالذات استقبل الداي القنصل الفرنسي دوفال، الذي بعد إساءته للأدب وقعت الواقعة التي تدفع الجزائر ثمنها، إضافة إلى مطابخ وحمام وقاعة للموسيقى زين جدارها الداخلي بقوس وأعمدة صغيرة، أما جناح

الحريم وهو مكان مستقل ومخصص للنساء فيوجد في الشمال الغربي للقصر وينتظم حول صحن صغير فوق الديوان والمخزن.

نال الباي قسطا من الراحة في داره العاصمية، ثم انطلق مساء نحو قصر الداي للسلام وتأكيد ولاءه وطاعته، وكان شديد الحرص على الوديعة التي يحملها، وقد أراد أن يسأل الداي عنها، فلم تزل في نفسه موجدة في وقوعها بيد الأعداء، ولكنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يصرح بمخاوفه وشكوكه تلك.

استقبل الداي حسين حاكم بيلكه بالحفاوة والترحاب، ولم يكن الداي في أحسن حالاته، رغم أنه حاول أن يبدو كذلك أمام صديقه وأحد عماله، ولم ينخدع الباي بتلك الابتسامة المزيفة، والفرحة المصطنعة التي أبداها سيده، ولم تنطل عليه ثقة الداي بنفسه التي تجاوزت حدودها، لقد كان يخفي وراء كل ذلك خوفا وخشية وجزعا، فقرأ الحاج أحمد ما بين أسطر نفسية مولاه فوجده مهموما حزينا وكئيبا، رغم حياة البذخ

والترف التي كان يعيشها، وشعر بأن همّا كبيرا يجثم على صدره، فيؤرقه ويشغل باله، فلم يشأ أن يثقل عليه، ويطيل فترة اللقاء الودي معه، فاكتفى بالسلام والاطمئنان، على أن ينهي من الغد بقية أعماله الرسمية، ولشد ما كانت مفاجأته عندما سأله الداي عن أحوال المداطنين والجنود، وتحاشى ذكر المال تماما، ولم تكن تلك من عاداته أو من اهتماماته، فظن الباي أن سؤال سيده إنما له معنى واحدا، ويتلخص في كلمة واحدة وهي الحرب، وقد حاول الداي أن يخفف من حدة الأزمة، وأنه قادر على احتوائها وإنهائها، لكن الحاج أحمد شعر بفضل خبرته في الحكم أن الداي يخفي أمرا عظيما، أو هو يحاول ما بوسعه تفادي وقوع خطر عظيم، إنها أزمته مع فرنسا بدون أدنى شك، لكن ما الذي استجد فيها والداي هو من رسم ملامحها وتفاصيلها، وهو الذي أوصل الأزمة إلى حافة الجحيم، بتسرعه وغطرسته وكبريائه الأجوف، فمن الغباء كما يظن أحمد باي أن تقع في شرك نصبه عدوك وأنت تعلم ذلك؟.

هل ستغزونا فرنسا، وتأتينا ببقية دول أوروبا معها؟ ذلك هو السؤال الذي لم يجد له الباي إجابة شافية، فلم يجن من طرحه سوى وجع الرأس والقلق طوال الليل.

أثناء لقائه الثالث مع الداي حسين، سأل أحمد باي، حاكمه وولي نعمته عما يشغله؟ وحاول ما باستطاعته التهوين من أمر الأزمة مع فرنسا، عله يسمع من الداي ما يرضي فضوله، أو يخفف عنه، فيجد أجابات شافية للأسئلة التي تؤرقه.

قال الداي، إن الفرنسيين يحضرون لشيء ما في الخفاء ضدنا أكثر من الانتقام، وأن القنصل البريطاني نقل لي بعض تلك الأخبار.

قال الباي: أي شيء ممكن أن يحدث مثلا.. غير الحصار والقصف ربما؟.

قال الداي: عيوننا في الخارج أكدت لي أنهم يحضرون لما هو أكبر من مجرد حصار و قصف أو حتى ما يسميها المصريون، حملة تأديبية.

قال: وما شأن باشا مصر محمد علي في ذلك؟.

قال: لقد تبرع أو تطوع لشن حملة علينا، لإرضاء فرنسا وإشباع أطماعه التوسعية، وربما يرغب هذا العجوز الألباني، في الحلول مكان مولانا السلطان... إنه صديقك أليس كذلك أيها الأخ العزيز؟.

سأل الداي وهو يعرف حميمية العلاقة التي تربط أحمد باي بباشا مصر، وكأنه أراد القول مواربة، حاول أن تعرف منه ما يخفونه لنا.

تجاهل الباي السؤال بهز رأسه، كمن يوحي بإجابة مبهمة، وكان أثناءها يفكر بهذا التطور الدراماتيكي لضربة مروحة تافهة على وجه قنصل تافه.

قال الباي: وأين مولانا السلطان من كل ذلك؟ هل وقفتم على رأي إسطنبول وما سوف تفعله؟.

قال الداي: ما عرفته لا يسعد قلبا ولا يسر صديقا، بل ينكد العيش والحياة، ولا يفرح إلا قلب الأعداء.

رفع الباي حاجبيه الكثيفين دهشة لما يسمع، فهل يعقل أن يكون السلطان العثماني هو الآخر متواطئا على الجزائر؟ لا يعقل ذلك ولا يمكن تصوره، لكن الباي تحاشا الاستزادة في المعرفة فيكفيه نكدا وحرقة بما سمعه، ولا يرغب في معرفة ما يجعله يرسل ألف شتيمة لجميع الحكام والقادة، وهو لن يتوان عن فعل ذلك، ولا يخفي حبه وولاءه للسلطان في نفس الوقت.

مضت الأيام ثقيلة بطيئة ومالحة، طعمها كطعم العرق المتصبب من جبهة الباي، الذي حلم بالراحة فوجد نفسه في قلب المعمعة، فمن أين تأتي الراحة وهو يسمع بين الفينة والأخرى صوت قذيفة، وصراخا وهلعا، ولم تكن أحاديث الناس يومها إلا عن الحصار والحرب والغلاء، وعندما فكر في زيارة أصدقائه الجزائريين شاهد في أعينهم وعلى رؤوس ألسنتهم، ما ينم عن الكره والحقد على الأتراك جميعا، ولأنه يتميز عن بني قومه، فقد تسبب ذلك له بأذى كبيرا، فقد كان مضطرا لسماع انتقادات لو سمعها

الداي لنصب المشانق لأصحابها، وقد اعتبره الجزائريون واحدا منهم، فأطلقوا العنان لألسنتهم وعواطفهم للنيل من أبناء عمومته بما لا يشتهي رجلا سماعه.

انتقلت عدوىٰ التفكير إلىٰ الباي نفسه، فتساءل ما الذي يمكن أن يحدث، وعلاقات الجزائر طيبة وصادقة مع الجميع، فسهر ليلته تلك في البحث والسؤال، ولم تكد عينه تغمض تلك الليلة، حتىٰ سمع صوت الأبواق والنفير، مع وقع حوافر الخيل والجند، وعندما هم بسؤال أهل البيت عما يجري في الخارج، سمع طرقا عنيفا علىٰ باب داره في القصبة، فخرج هو شخصيا لاستطلاع ما يحدث، فوجد أمامه أحد عمال الداي، وقد امتقع وجهه وجحظت عيناه، فهدأ الباي من روعه وأمر له بكأس ماء، لكن هذا كان في عجلة من أمره، وقال: إن مولانا الداي حسين يدعوك للذهاب إليه في دار الحكم، وأثناء الطريق أخبره رسول الداي أن السفن الحربية الفرنسية اقتربت كثيرا من شواطئ العاصمة، وبالتحديد في شاطئ سيدي فرج، وقد

استدعى الداي أعضاء برلمانه، وجميع مستشاريه وعماله، والجميع يرجحون عملا عسكريا فرنسيا في الأيام المقبلة، ولا بد من دراسة الموقف والتباحث فيه.

كان القصر أشبه ما يكون بثكنة عسكرية، فقد اجتمع الضباط بمختلف رتبهم العسكرية، من الآغاوات والباش آغاوات والفرسان، وكان الداي مجتمعا مع قادة جنده ووزرائه، فدخل عليهم الباي أحمد، وأخذ ينصت إلى الحديث الدائر بين الداي ومجلسه، فعرف منذ الوهلة الأولى أن الحرب قاب قوسين أو أدنى، بل أن الداي تحدث أيضا وأكد أن الحرب قد اندلعت فعلا، وأن الفرنسيين سوف يقومون بعملية إنزال على شاطئ سيدي فرج، والقضية مجرد ساعات فقط.

لم يرق للباي ما يصل إلى أذنيه من كلام، فأخذ يتفرس في تلك الوجوه الشاحبة المتعبة، كان الداي في أسوأ حالاته وقد بدت الهزيمة والبؤس على ملامحه، أما بعض الضباط فكانوا يتحدثون عن الحرب وكأنهم يواجهون مجموعة من

البدو المتمردين، بينما التزم قائد الجيش إبراهيم آغا الصمت فكان يفتل شاربه وهو يستمع لاقتراحات أصحابه، فهمس الباي لنفسه: لا أعتقد أن هؤلاء رجال حكم ولا رجال حرب أبدا، ولما لاحظ الداي صمت باي قسنطينة سأله عن رأيه في الموقف، فقال الحاج أحمد بعد أن بسمل وحوقل، لن تعجزنا مقاومة الفرانساويين ودحرهم، لكن كيف نفعل ومتى نفعل، فالقضية مرهونة بعنصر المبادأة، وكل ما يلزمنا هو خطة عسكرية سليمة ومحكمة.

قال الداي حسين: نحن بغنى عن سرد التفاصيل والحديث في العموميات، فما الذي تراه بالضبط؟.

قال الباي، وقد شعر ساعتها بأنه المخلص والمنقذ: قد سألتموني الرأي فإذا كنتم تثقون بي، فإن عندي خطة لو اعتمدتموها سوف نحقق ولا ريب نجاحات هامة، على الأقل سوف نعيد الأعداء إلى سفنهم مدحورين، وما أراه صوابا أن نتجه بقواتنا إلى وادي مازفران، وعندها سيقع أحد أمرين، إما أن يهاجم الفرنسيون مدينة الجزائر

وإما أن يسيروا نحونا، ففي الحالة الأولى ننقض على مؤخرتهم فنأخذ مؤونتهم، ونهاجم قوافلهم فنقتل المتخلفين ونعمل على قطع الاتصال بينهم وبين مراكبهم، وهذه النقطة الأخيرة سهلة جدا لأن البحر يتغير ولا يسمح دائما بالنزول، أما إذا ساروا نحونا ليشنوا علينا الحرب، فإن واجبنا هو أن نتجنب المعركة ونجر جيوشهم إلى ميدان ملائم، وبعيدا عن مدينة الجزائر التي هي هدف مشروعهم.

لم يستسغ الآغا إبراهيم كلام الباي، ولم تعجبه حماسته تلك وهو يسهب في شرح خطته، فشعر بالغيظ والحسد، وكأن بينهما عداوة شخصية، وقد جاء وقت تصفية ما بينهما من خلاف.

انثنى الآغا إبراهيم نحو الداي، وقرب شفتيه الكبيرتين من أذنه، وهو الذي تربطه بالداي صلة قرابة، فقد كان صهره وصديقه، وقال: لقد جاء هذا الباي من قسنطينية لكي يعلمنا فنون الحرب وأصولها.

لم ترق هذه الملاحظة للداي حسين، فما هم به أكبر وأعظم من المناكفة والمحاسدة... ولما التزم الداي الصمت.

قاطع الباش آغا إبراهيم زميله الباي وقال: لم نجتمع هنا بانتظار تلقي الدروس الحربية، ما يلزمنا هو تفادي الهزيمة والسقوط، وإني واثق تماما من قدرتنا على صد الأعداء وهزيمتهم، وكما أعتقد فإن خطة الباي ملآى بالثغور والهفوات، فعلينا القتال مرة واحدة، وإعادة المعتدين من حيث أتوا.

أحس الباي بالغيظ من تدخل الباش آغا، ولم تكن تلك مناسبة للجدال فقال بتمهل: أرى أن لدى القائد إبراهيم ما يغنينا عن البحث والاجتهاد، فهلاّ أطلعتنا على استعداداتك؟.

صمت الجمع بانتظار سماع خطة قائد الجيش، لكن هذا أخذ يعبث بأوراق كانت أمامه، ثم فتح لفافة كانت معه هي عبارة عن خارطة للمنطقة، وبدأ في شرح خطته لمواجهة القوات الفرنسية، ثم أسهب في التفصيل

والشرح حتى خال السامع أن قائد الجيش سوف ينفخ على الخارطة ليعيد القوات الفرنسية من حيث أتت، قال الداي حسين متذمرا: يبدو أننا لم نستعد ونتخذ احتياطاتنا لمثل هذا اليوم، فعقب أحد الضباط قائلا: ينبغي علينا أن نفشل الإنزال الفرنسي مهما كلف الأمر.

اعتدل قائد جيش الداي في كرسيه، وقال وهو يفخم من حجم قواته ومدى جاهزيتهم للقتال: سوف نكون لهم بالمرصاد ولن يحققوا ما يرجونه من نتائج، فنم يا مولاي قرير العين، مرتاح القلب.

لم يقتنع الحاج أحمد بما سمعه، فأيقن أن الهزيمة لا فكاك منها، أمام هذا الصلف والغطرسة الفارغة، لكن الداي أعطى أوامره بإطاعة قائد جيشه، وطلب من الباي أن يضع نفسه وجنوده تحت إمرته.

كان الباي الحاج أحمد قد حضر إلى العاصمة وبصحبته أربعمئة فارس، ولم يدر في خلده أن يأتي بجيش مقاتل، فقد وعد أن يرسل بضعة آلاف من الجند، لكن

ليس بهذه السرعة، وقد حضر مع هذا العدد الكبير من الفرسان لحماية الأموال المترتبة على بايلك الشرق، ولما حدث ما حدث، لم يجد بدا من الاشتراك في الدفاع عن الإيالة، رغم معرفته أن هؤلاء الفرسان، لا يمكنهم فعل الكثير، لكنهم على الأقل يستطيعون سد ثغرة مهما كانت صغيرة ومتواضعة، ولم يجد بدا من تنفيذ أمر الداي، لكنه لم يخف عدم رضاه من استعدادات الجيش.

قال لأحد مساعديه المقربين وهو يغادر قاعة الاجتماع: أرجو أن ينقضي هذا الأمر على خير، رغم شكي في ذلك.

توجه الباي أحمد من ليلته تلك إلى منطقة العمليات العسكرية، ولما اقترب من شاطئ زرالدة، أمر جنوده باستطلاع المكان جيدا، ثم سار مترجلا يتفحص المنطقة، وكانت أصوات المدفعية تنطلق من حين لآخر، وكان الجنود يتحركون بصورة فوضوية وعشوائية، وما هي إلا فترة قصيرة حتى فتحت السفن الفرنسية مدافع نيرانها

نحو الشاطئ، فقال الباي بسخرية مرة: يبدو أنهم كانوا في انتظاري، فقد بدأوا بإرسال رسائل الترحيب بنا.

كان القصف عنيفا جدا، حتى أنهم لم يتركوا مترا واحدا إلا قصفوه، والتقى الباي أثناء استطلاعه بكل من باي التيطري علي مصطفى بومرزاق فعبر له عن خشيته من عدم تمكن قواتهم من صد الهجوم الفرنسي وهم على هذه الشاكلة من الفوضى والارتباك.

ثم انضم إليهما الآغا إبراهيم قائد جيوش الداي، وكان هذا متوترا عصبيا يلقي بالأوامر جزافا على عواهنها، قال الباي أحمد لما رأى ذلك: إن الحرب على الورق أسهل بكثير عن حقيقتها في الميدان، وإن سألتموني المشورة فإني أنصحكم بمناوأة العدو وعرقلة نزول قواته إلى البر، وهم لا بد فاعلون ذلك الليلة.

قال الآغا إبراهيم، وهو يشد بزته ويصلح من قلنسوته: لا أظنهم سيغامرون بالنزول، أتوقع أن يقصفوا مواقعنا حتى يتأكد لهم خلو الشاطئ من أية قوات جزائرية.

عقب الباي على كلامه: وماذا لو نزلوا هل حضرتم خطة لعرقلتهم أو صدهم؟. تطلع باي التيطري إلى الآغا إبراهيم بنظرة استفهام، فأصر هذا على رأيه باستحالة نزول القوات الفرنسية، فقال الباي بومرزاق: علينا التخندق جيدا لصدهم، ومنعهم من التقدم نحو العاصمة، أما الحاج أحمد، فتابع شرح وجهة نظره، علينا كما أخبرتكم أن نعرقل نزولهم. بالقصف المدفعي، ثم نسحب قواتنا إلى غرب شاطئ سيدي فرج.

فاعترض الآغا إبراهيم على الخطة، وقال: أنا هنا من يقرر كيفية سير المعركة، ثم إن سحبنا قواتنا سوف يسهل على العسكر الفرنساوي التقدم نحو الداخل، فقال باي التيطري: دعه يكمل شرح خطته أيها القائد فليس فينا من يشك بقدرة الحاج أحمد العسكرية، ولا في حصافة رأيه وحنكته، فتابع الباي أحمد شرحه وقد أعجبه ثناء الباي بومرزاق: اذا اتجهت قوات العدو نحو العاصمة تقوم قواتنا بضرب مؤخرة قواته وتفصل بينها وبين سفنه

في الخليج، وتصبح بذلك بين نـارين، وإذا لم يتجه نحو العاصمة تستدرجه قواتنـا إلى مكـان مناسـب للمعركة بعيداً عن الأسطول، حيث المدد من جهة وإمكانية الفرار والهجوم من جديد.

رفض الآغا إبـراهيم اقـتراح الحـاج أحمـد بـاي، رغم محاولة باي التيطري ثنيـه عـن عنـاده، وأصر عـلى مواجهة الفرنسيين في منطقة سيدي فرج، فقال الباي أحمد يائسا: لقد اختار الفرنسيون هذه البقعة فهل نقع في شراكهم ونحقق لهم بأيدينا ما يرمون إليه، والله إن هذا الشيء عجيب.

وحدث ما توقعه الباي بالضبط، فقـد نزلـت القـوات الفرنسية عنـد الثالثـة صـباحا عـلى شـاطئ سـيدي فـرج، وتزامن نزولها مع قصف مدفعي حـربي مـن سـفن العـدو، التي كانت تؤمن غطاء ناريا لتلك القوات، وعنـدما حـاول جيش الداي التقدم لصـد القـوات الفرنسـية وقـع فريسـة سهلة لنيران المدفعية الفرنسية، فتراجع الجند وتقهقروا، فيما أقام الفرنسيون تحصيناتهم وراء تلك التلال البحرية، وما أن

أرسلت الشمس أشعتها حتى اتضح الكم الهائل والغزير من الدماء الجزائرية التي أريقت تلك الليلة، لقد كان شاطئ سيدي فرج أحمر تفوح منه رائحة الموت والبارود، ورغم ذلك استبسل الجيش الجزائري في محاولات صد القوات الغازية، لكن مدفعية العدو التي وصلت إلى الشاطئ أخذت تدك مؤخرة جيش الداي، وتقصف دفاعاته البشرية غير المنظمة، ولما رأى الباي أحمد ذلك، قرر أن يحمل على الأعداء حتى نيل الشهادة، فقد تقطعت سبل الخلاص، ولا يمكن التراجع أبدا مهما كان الحال.

هي الشهادة إذن صاح الباي أحمد وهو يعتلي صهوة حصانه، ثم اندفع ومن معه من الجند نحو القوات الفرنسية، فقاتل حتى أعياه التعب، لكن الفرنسيين تمكنوا من إحداث ثغرة عظيمة في الدفاعات الجزائرية فسقطت سيدي فرج بيدهم وبعدها كسبوا معركة سطاوالي، فانسحب الباي أحمد من أرض المعركة، واتخذ موقعا له بالقرب من بلدة المعالمة، فسمعه قائد جنده وهو يصلي ويبكي بحرقة ولوعة، فاقترب الضابط من سيده، وهو يظن

أن مكروها أصابه، فسمعه يدعو ربه أن يحفظ البلاد وينجيها من الخطر العظيم المحدق بها، كان الباي حاسر الرأس عاري القدمين، وكانت دموعه تنساب بغزارة على لحيته العريضة الكثة، فتراجع الضابط بأدب دون أن يحدث أي صوت مشفقا على سيده وعلى نفسه أيضا.

مكث الباي أحمد في العاصمة حتى الخامس من جويلية، وكان ينتظر قرار الداي حسين النهائي، وأثناء تلك المدة لم يخلع ملابسه العسكرية لم يمس الطيب ولا النساء، كان كل همه منصبا على حماية عاصمة الإيالة من السقوط، وقد رأى بأم عينه فزع الأتراك ورغبتهم في تسليم المدينة والنجاة بأنفسهم، وأكثر ما كان يخشاه أن يكون ذلك هو رأي الداي حسين.

لم يكن قرار الداي حسين في التسليم مفاجئا للباي أحمد، فقد توقعه بعد معركة سطاوالي، عندما عاين وشهد على المقاومة البائسة للجيش التركي، لكنه كان حزينا وكسورا بسبب هذا القرار، وكان الداي حسين قد جمع أعيان العاصمة، وجميع الأمناء وكذا رجال القضاء

وطلب منهم الإدلاء بآرائهم بعد أن عرض أمامهم الموقف الصعب الذي تمر به السلطة في الجزائر قائلاً: إنه في حالة مثل حالتنا ينبغي البحث عن أنجع الوسائل ما هو رأيكم؟ هل من الممكن مقاومة الفرنسيين مدة أطول؟ أم ينبغي الاستسلام والتنازل عن المدينة؟.

نزل كلام الداي على رؤوسهم كسحابة سوداء داكنة، فصمت الجميع، وكأنهم ينتظرون صوتا ملهما من السماء يخبرهم بما عليهم فعله، وكان من بين الحضور الحاج السعدي وابن زعموم، والباي بومرزاق وابنه أحمد ومحيي الدين بن المبارك وغيرهم من الخلق، ولما لاحظ الحاج سيدي السعدي حالة الصمت تلك قال: ليس هذا وقت الصمت والاستكانة، فلا بد من إجراء سريع وفعال.

لم ينطق الباي أحمد في ذلك الاجتماع بحرف واحد، فقد أخبرهم برأيه الناجع منذ البداية فاستهانوا به وخذلوه، وكان الداي حسين يسترق النظر إلى الحاج أحمد وكأنه ينتظر منه مبادرة ناجحة منقذة، وعندما كانت تلتقي عينا الرجلان كان الداي يشيح بوجهه منكسرا

حزينا، لكن وقت الندم والعتاب قد فات، فالعاصمة على وشك السقوط.

دخل أحد حجاب الباشا، فاقترب من أذنه هامسا: إن القنصل الانجليزي بانتظارك في المكتب.

استأذن الداي المجتمعين، وغادر على عجل، ولم يغب سوى ساعة من الزمن، عاد بعدها مهزوزا ممتقعا، شارد الذهن مشتت البصر، فلم يكن ليجرؤ على التمعن في وجه أحد من الحضور، وكان الجميع بانتظار ما سيقوله لهم بعد هذه الغيبة القصيرة.

قال الداي، وهو يبلع ريقه، ويجر الكلام جرا، لقد وافقت على شروط الفرنسيين للتسليم، وقد نصحني صديقنا القنصل الانجليزي بالموافقة، وقد اشترطت عليهم الحفاظ على أنفسكم وأموالكم ودياركم وأنتم تعلمون.....فقاطعه الحاج السعدي قائلا: لن نسلم مدينتنا أبدا وسوف نقاوم وندافع حتى آخر رمق فينا، لن يدخلوا العاصمة إلا على أجسادنا.. وأيده في موقفه هذا الباني بو مرزاق الذي كان شاهدا هو الآخر على العنجهية الفارغة

للآغا إبراهيم، فقال باي التيطري: ليس لنا إلا المقاومة ولا يجب التفكير في الاستسلام أبدا.

لما سمع الحضور كلمة الحاج السعدي، ثارت ثائرتهم وهتفوا جميعا مكبرين داعين للقتال والدفاع عن المدينة، وكأنهم كانوا بانتظار مثل هذه الإشارة، وبين صراخ وصياح ولغط وتكبير، شعر الداي بأنه وحده المسؤول عما آلت إليه الأوضاع، فأخبرهم بأنه يدعم مقاومتهم وسوف يقف معهم في أي خطوة يتفقون عليها، وما هي إلا برهة حتى جاءهم من يخبرهم أن حصن الامبراطور قد سقط بيد قوات العدو الفرنسي، فلم يزدهم هذا الخبر إلا إصرارا للدفاع عن عاصمتهم، ارتجّ الداي لهذا الخبر، وأدرك أن لا مناص له من القرار الصعب، بعدما كان متأرجحا بين تزعم المقاومة أو الاستسلام والخروج من الجزائر بسلام.

كان أحمد باي يراقب حركات الداي وسكناته، ويتفرس فيه بعينيه النافذتين الثاقبتين، فقال هامسا لقائد جنده: يبدو أن الأمر قد قضي، هيا بنا نحو الخارج. أحس الباي بضيق في صدره، وكأن جبلا ثقيلا يجثم على قلبه.

فتقدم نحو الداي ومد يدا باردة متشنجة لمصافحته، فمد الداي يده وكانت حارة رطبة تنز بالعرق، فكانت هذه المصافحة المعبر الصادق عن طبيعة ذلك المجلس.

لم ينتظر الباي أحمد قرارات مجلس الداي، فقد أدرك بحسه وفطرته أن أهالي العاصمة سوف يدافعون عنها بما أوتوا من قوة وعزيمة، لكنه كان آسفا وحزينا على موقف الترك والكراغلة، الذين يقع على عاتقهم مسؤولية الهزيمة المرة التي تلقوها.

انسحب أحمد باي مسرعا بفرسانه خارجا من العاصمة، فليس من الحكمة البقاء فيها، خاصة مع قرار الداي المخزي بعد اجتماعه بالقنصل الانجليزي، ولما سأله قائد جنده عن حقيقة تسليم العاصمة للكفار ما سماهم، قال الباي ساخرا: قلت التسليم، بل هو الاستسلام المر والمخزي والمعيب للكفار الصليبيين.

سأل قائلا: وهل نعكسر داخل العاصمة أو خارجها؟.

هنا انفجر الباي كأنه بركان ثائر، فقد زلزلته الأحداث غير المتوقعة، فلم يعد يحتمل، شعر بأن قلبه يكاد ينفجر، وبرغبة عارمة اجتاحته للقتال والعنف، بل إنه قادر على قتال أهل الأرض جميعا من المتخاذلين والمستسلمين، الذين لا يجيدون غير الكلام الملوث والمعقد.

لقد تمكن منه الغضب والقهر، فأخذ يصرخ في وجه قائد الجند، وكأنه المسؤول عما حدث: ماذا نفعل في العاصمة، هل بقيت عاصمة لكي نعسكر فيها، هل تريدني أن استسلم أيضا للكفار فأصافحهم وكأن شيئا لم يحدث؟

ارتفع صوته، واحمر وجهه، فلم يعد هو الباي الهادئ الذي يعرفونه وصاح مزمجرا: عامان كاملان مرا عليهم وهم يلعبون..عامان كاملان لم يحققوا فيهما شيئا، وعندما نصحتهم استهزأوا وسخروا، أي نوع من الحكام هؤلاء؟.

لما ذهب الغضب عن الباي، واستكانت نفسه قليلا، سأل قائد الجند عن الوجهة التي يتخذونها؟.

لم يجد الباي رغبة في نطق حرف واحد، فاكتفى بأن أشار بيده نحو الشرق، أي إلى قسنطينة، قال القائد: ولكن ألا يجدر بنا يا سيدي أن ننتظر ما ستؤول إليه الأوضاع؟.

قال الباي وهو يهز رأسه ساخرا: ألم تفهم بعد، لقد رأيت في عيني الداي قراره بعدم المقاومة، وليست لدي أدنى رغبة في الانتظار لمصافحة الأعداء.

قال: إذن لنشترك مع أهالي العاصمة في مقاومتهم.

قال الباي بحنق: ولمن نترك أهلنا وأموالنا وأرضنا هناك، أنت هنا تثرثر والعدو يعد علينا أنفاسنا.

إرهاصات المأساة

بسقوط عاصمة دار السلطان، انتهى الحكم التركي للجزائر، وقد كتب الباي في مذكراته لاحقا بعض فصول هذه المأساة.

....والحق لم تكن الحملة الاستعمارية على إيالة الجزائر وليدة ساعتها، أو كما يظن البعض ردة فعل على إهانة تعرض لها سفير الامبراطور، بل إن هذا الاجتياح الاستعماري كانت له جذوره العميقة في الوجدان الفرنسي، ابتداء بهنري الرابع مرورا بلويس 14 ونابوليون، لقد كانوا جميعا يرغبون في تأسيس إمبراطورية استعمارية مترامية الأطراف، وهذا ما يفسر إصرار نابوليون المتواصل على احتلال الجزائر لما أوفد جاسوسه بوتان عام 1808م، وكلفه بمهمة التجسس قصد إعداد تقرير لتحضير ترتيبات الاحتلال.

وتمكن هذا الأخير من تقديم دراسة راقية، حيث تكمن بدقة من معرفة وضع الداي وقوة الجيش العثماني.

يعود سبب القطيعة بين الإيالة والامبراطورية، إلى مسألة القمح التي ظلت مفتوحة ومعلقة لعدة سنوات، وبدأت تظهر سوء نية فرنسا تجاه الجزائر، بعد أن ساعدتها في الأوقات الحرجة، وقد سمحت التجارة الخارجية للمدينة خاصة تجارة القمح التي كانت بيد التاجرين اليهود يين بيكري وبوشناق الذين استغلوا فرصة حصار انجلترا لفرنسا، وأرسلوا كميات كبيرة من القمح إلى فرنسا، وباعوها بخمسة فرنكات للكيلة الواحدة التي لم تكلفهم سوى أربعة فرنكات، وهكذا حصلوا من تلك الشحنات على ثلاثة ملايين وسبعمئة وخمسين ألف فرنك، وهكذا أصبح ثمن القمح دينا بين الداي والحكومة الفرنسية.

أعلن بكري وبوشناق سنة 1800 م أن الديون بلغت سبعة ملايين من الفرنكات، وقد نجح اليهوديان في إقناع فرنسا بتسديد قسط من الديون، وتدخل تاليران وزير الخارجية الفرنسي فدفعت قسطا لليهوديين سنة

1819م قيمته 7 ملايين فرنك، ولـذلك قـال بوخـوص لتاليران ما يلي: لو لم يكن الأعرج، وهو يشير إلى تـاليران ملك يدي ما كنـت أسـتطيع أن أفعـل شـيئا في بـاريس».
وبهذه الصفقة الغادرة خسر الطرفان أموالا طائلة.

وافق الداي حسين تسوية مرضية، على أمـل أن تسـدد فرنسا دينها في أقرب وقت، لكنهـا تناسـت ذلـك لاحقـا، ففي ماي 1820م أعلن الداي: إن الحكومة الفرنسـية قـد نفذت جميع التزاماتها بعد انتفاضـة أكتـوبر 1819م، فقـد اتضح للداي حسين أن هناك مؤامرة كان القنصـل ديفـال طرفا فيها، ورأسها في بـاريس هـو تـاليران، فأخـذ الـداي يراسل الحكومة الفرنسية بهذا الصـدد قـائلا: أستطيع رد هذا المبلغ إلى فرنسا في مدة أربع وعشرين ساعة في حالة ما إذا كان أحد رعايانا مدينا لملك فرنسا، لكن رسـائله تلـك ذهبت أدراج الرياح، وهذا ما أدى بالداي إلى فقدان صبره لعدم تلقيه أجوبة من الحكومة الفرنسية.

وبمناسبة عيد الفطر من عام 1243 هجرية الموافقة لـ 1828م جاء السيد ديفال عشية يوم العيد ليؤدي زيارته كما جرت العادة فأخبره الداي عن الرسائل التي بعث بها إلى ملك فرنسا بشأن أداء الدين المتبقي في ذمة الدولة الفرنسية.

كان جواب القنصل في منتهى الوقاحة، إذ قال: إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم، وقد أراد القنصل من كلامه هذا استفزاز وتحقير الداي، وهذا ما أكده القنصل الأمريكي وليام شالر الذي كان من بين الحضور، وقال يومها، أن القنصل تعمد الوقاحة واستفزاز الداي واستدراجه لإهانته، وهذا ما مس كرامة الداي لدرجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بمروحة من الريش كانت بيده، وهذا ما يؤكده السيد بوتان في قوله: ضرب الداي حسين السيد ديفال على وجهه بمروحة من ريش النعام، وهناك رواية أخرى تقول أن الضرب لم يقع أصلا، ولكن الداي قام بتهديد القنصل بالضرب.

قام القنصل بتضخيم الأمر فأخبر ملكه بما جرى، فجاءه الأمر بمغادرة الجزائر، فغادرها ومن معه من الفرنسيين المقيمين في المدينة.

هذا هو السبب الظاهر للعيان، أو المشهور والمتعارف عليه، الذي اتخذته فرنسا كذريعة لاحتلال الجزائر تحت غطاء استرجاع كرامتها، لكن الحقيقة غير ذلك تماما، بل للحقيقة هنا عدة أوجه.

كانت حكومة الرياس في الجزائر تابعة للإمبراطورية العثمانية التي أصابها العجز، ونخر السوس أركانها، ما دفع الدول الأوروبية للاستقواء عليها، بغية الاستيلاء على الأراضي التابعة لها، وخاصة أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون على غنيمة تقدر بنحو 150 مليون فرنك توجد بخزينة الداي كما أن شارل العاشر ملك فرنسا كان يرغب في خلق تعاون وثيق مع روسيا في حوض البحر المتوسط، حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية في هذا البحر والتمركز في ميناء مدينة الجزائر، الذي كان يعتبر في نظر الملك الفرنسي تابعا للإمبراطورية العثمانية المنهارة.

وفي عام 1827م وجد شارل العاشر معارضة داخل مجلس النواب تسببت له في مشاكل كبيرة، وكادوا أن يطيحوا به، ولتحويل أنظار الفرنسيين إلى الخارج اتخذ شارل العاشر من الحملة على الجزائر وسيلة لحل مشاكله وإسكات صوت المعارضة ولكسب رضا الشعب الفرنسي، وقد اعترف شارل العاشر بذلك عندما قال: إنه لشيء جميل أن نتقدم إلى برلمان ومفاتيح مدينة الجزائر بيدنا.

إن هزيمة الجيش الفرنسي في أوروبا وفشله في احتلال مصر والانسحاب منها، بفعل ضربات القوات البحرية الانجليزية في سنة 1801م، دفعت بنابوليون بونابرت إلى إرسال أحد ضباطه إلى الجزائر في الفترة الممتدة من 24 ماي إلى 17 جويلية 1808م لكي يضع له خطة عسكرية تسمح له بإقامة محميات فرنسية في شمال إفريقيا تمتد من المغرب الأقصى إلى مصر، وفي عام 1809م قام هذا الضابط العسكري واسمه بوتان بتسليم المخطط العسكري لاحتلال الجزائر إلى نابوليون، واقترح أن تحتل المدينة عن طريق البر، وبعد هزيمة نابوليون في

معركة واترلو سنة 1815 وتحالف الدول الكبرى ضد الجيش الفرنسي في أوروبا شعر ملك فرنسا أنه من الأفضل أن يعتمد على سياسة التوسع في شمال إفريقيا، ويعمل على انشغال الجيش بمسائل حيوية تتمثل في احتلال مدينة الجزائر وتحقيق انتصار باهر هناك، وبالتالي يتخلص الملك من إمكانية قيام الجيش بانقلاب ضده في فرنسا .

كانت أوروبا بسبب ازدهارها تشعر بالحاجة إلى التوسع واستغلال الآخرين من وراء البحار، وقد عجل هذا التنافس بعزم فرنسا على احتلال المدينة ومن تم التوسع على باقي الأقطار والاستئثار بخيراتها، فقبل الحملة بقليل سنة 1827م، كتب وزير الحربية الفرنسي كليرمون تاليران تقريرا عن الأوضاع العامة في الجزائر وخص بالذات مدينة الجزائر قال: "توجد مراسي عديدة على السواحل، يعتبر الاستيلاء عليها فائدة كبيرة...، وتوجد في شواطئها ملاحات غنية، والى كل هذا توجد الكنوز المكدسة في قصر الداي وهي تقدر بأكثر من خمسون مليون فرنك"

فالجوانب الاقتصادية كانت حافزا قويا في إقدام فرنسا على احتلال المدينة، فكانت تطمع في خيراتها والبحث عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها .

كما انعكس الصراع الذي كان قائما بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية على المسلمين بالجزائر، فالأسطول الجزائري يعتبر في نظر الدول الأوروبية امتدادا للأسطول العثماني، ما دفع بالدول الأوروبية للتعاون فيما بينها لضرب الوحدة الإسلامية، وقد كان المسيحيون يتهمون الجزائريين بأنهم يقومون بأعمال قرصنة في عرض البحر الأبيض المتوسط، وسجن المسيحيين الذين يعملون في السفن إلى أن تدفع دولهم عنهم الفدية .

وتظهر النية الفرنسية المبيتة لاحتلال الجزائر في التقرير الذي رفعه السيد كلير مون وزير الحربية الفرنسية إلى مجلس الوزراء الفرنسيين المؤرخ في 14 أكتوبر 1827م والذي قال فيه: "إنه من الممكن ولو بمضي الوقت أن يكون لنا الشرف في أن نمدنهم وذلك

بجعلهم مسيحيين"، ونفس الاستنتاج نستخلصه من خطاب الملك الفرنسي شارل العاشر الذي أعلن أمام الجمعية الوطنية الفرنسية يوم 02 مارس 1830م بأن "التعويض الهائل الذي أريد الحصول عليه وأنا أثأر لشرف فرنسا، سيتحول بمعونة الله لفائدة المسيحية" ومن ثمة فإن الحملة العسكرية ونجاحها يعتبر انتصارا للمسيحية، واستمرارا للحروب الصليبية.

مهما اختلفت الأسباب والذرائع، يتبين لنا أن فرنسا كانت لها عزيمة قوية لاحتلال الجزائر، فأعدت العدة، وحسبت لكل شيء وعندما تهيأت الظروف كانت الحملة على المدينة لتتوسع لتشمل كل البلاد الجزائرية.

رغم تأكيدات الداي لبعض المقيمين في الجزائر أنه لم يقصد إهانة فرنسا، وأنه مستعد للاعتذار عن الغضب، إلا أن القنصل زاد الأوضاع تعقيدا فبمجرد وصوله إلى باريس جهزت فرنسا أساطيلها وبعثتها إلى المدينة تحت قيادة الأميرال كوليت، لمطالبة الداي بوجوب تقديم

اعتذار لقنصلها العام ديفال، وكان الإنذار الفرنسي أكثر من اعتذار بكثير، وهو ما قدمته بواسطة قنصل سردينيا المدعو دات لي الذي أصبح يرعى المصالح الفرنسية بالمنطقة وتضمن الإنذار ما يلي:

1-على كبار شخصيات الجزائر التوجه إلى السفينة وتقديم اعتذار إلى قنصلها.

2-عند إعطاء الإشارة يجب رفع العلم الفرنسي فوق القصر وجميع أبراج وحصون المدينة.

3-يمنع مصادرة الأموال العائدة إلى فرنسا وسفن الدول الصديقة.

4-لا يحق للقراصنة تفتيش السفن التي تحمل العلم الفرنسي.

5-على الداي الاعتراف بالامتيازات القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية وتطبيق الامتيازات.

وأعطيت للداي مهلة 24 ساعة لتنفيذ هذه الشروط، إلا أنه رفض الانصياع للفرنسيين، واعتبر هذه الشروط

إذلالا له ولحكومته ويقول في هذا الصدد ابن أبي الضيـاف: "لكن الداي حسين رفض الصلح، رغم أن بطانتـه كاملـة، نصحته بوجوب الصلح لكنه رفض" واشتد رفض الـداي بقولـه: "لا نجعـل الصـلح بينـي وبيـنكم فضـلا علـى أن أعطيكم رجلا من عندي" وأمام هذا الرفض هـدد الـداي بأنـه سـيفرض حصـارا بحريـا، فقامـت السفن الفرنسـية بالإقلاع من المياه الجزائرية في شهر جـوان 1827م ومعهـا القنصل، وبعض الفرنسيين المقيمـين بـالجزائر بينما بقيـت بعض السفن لمحاصرة شواطئ المدينة.

شرع في تطبيق الحصار في 15 جـوان 1827م، وكـرد فعـل الـداي حسـين علـي هـذا الحصـار انـه أمـر في هـدم المؤسسات الفرنسـية في القالـة وعنابـة وكـان ذلـك في 26 جوان 1827م، ومهمة الحصار كانـت سـهلة لأنـه لسـوء الحظ كانت معظم وحدات الأسطول البحري الجزائري في اليونـان تشـارك إلى جانـب الدولـة العثمانيـة في "معركـة نافارين" في أكتوبر 1827 إذلم تستطع السـفن المتبقيـة أن تواجه الحصار.

وللعلم فإن فرنسا لم تكتف فقط بهذا الحصار، بل أقدم سفيرها في اسطانبول فيومينو على تقديمه للمذكرة المترجمة التي سلمها لرئيس الكتاب العثماني في 2 أوت 1827م، يطالب من خلالها الحكومة العثمانية بوجوب التدخل لتأديب الداي حسين، وجاء فيها: "وحيث أن الداي زاد من تعدياته السابقة بتحقير قنصل فرنسا بالجزائر، فإن جناب ملك فرنسا اضطر لطلب ترضية عالمية مهددا بإعلان الحرب في حالة رفض طلبه، وحيث أن طلبه قد رفض وعليه فالحرب محققة.

ولكن هذا لم يمنع من القيام بمحاولات لفك الحصار، نذكر تلك المعركة التي كانت بين الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال غولي والأسطول الجزائري المؤلف من إحدى عشر سفينة، حاولت فك الحصار، ودامت المعركة عدة ساعات تراجع الفرنسيين أمام الأسطول الجزائري، كما تكرر الصدام بين الطرفين في أكتوبر 1828م، إذ حاول بعض الرياس مرة ثانية، لكن لم ينجح فأضاعوا أربعة

مراكب في نواحي كاب كاسين غرب مدينة الجزائر ، وقد دام الحصار لمدة 3 سنوات، وكان الحصار طويلا وصعبا جدا، تضرر منه الطرفان، حيث كلف فرنسا حوالي 20 مليون فرنك كما تمكن الجزائريون من أسر بعض رجال البحارة الفرنسيين وقتلهم.

ونتيجة لهذا قررت فرنسا التفاوض من جديد مع الداي حسين، وتم اللقاء بين الطرفين في 30 جويلية 1829م واجتمع الوفدان بالقصبة لمدة ساعتين، ونوقشت خلالها الشروط التالية:

1- إفادة شخصية جزائرية تعبر عن رغبة الداي في إبرام صلح مع فرنسا.

2- يتعهد الداي بإطلاق سراح أسرى السفن البابوية .

ولكن الداي حسين رفض وطلب من الضابط مغادرة المدينة فورا، وحدد الأجل بساعتين، ولكن الضابط لم يستطيع الخروج بسبب الرياح ولم يقدر على السفر، وكان

للحملة والأميرال دوبيري قائدا للأسطول البحري، وقد بدأت الاستعدادات الحثيثة لتنفيذ المشروع .

بينما كانت فرنسا تستعد للقيام بحملتها، كانت الجزائر تستعد أيضا لمواجهة الحملة، فأقدم الداي حسين باشا على تخصيص مرتبات لعدد من الجواسيس في كل من إيطاليا ومرسيليا وطولون وباريس، فنقلوا إليه خبر إستعداد فرنسا لغزو المدينة وأنها أعدت أسطولا رهيبا لذلك، وقد أكد هذا الخبر، تمكن سفينتان جزائريان استطاعتا أن تتسللا ليلا بين السفن الفرنسية المحاصرة، كانت أحداهما تحمل العلم الأنجليزي والأخرى العلم الإيطالي ويتألف هذا الأسطول من حوالي مائتي سفينة حربية و500 سفينة تجارية، ومن ضمن الأخبار التي نقلت أن الأسطول سيبلغ الشواطئ الجزائرية في شهر ماي 1830، وأنه سيرسو على الأرجح غرب المدينة في شبه جزيرة سيدي فرج .

ولهذا كان حسين باشا على علم بتفاصيل الحملة قبل وقوعها، وتبعا لاطمئنانه الوهمي أن هذه الحملة لن تتعدى

الضرب من البحر شأنها شأن الحملات الأوربية السابقة، ففاته أن يعد جيشا ليتمركز حول المدينة، وترك تلك الفرق التي كان عليها أن تقاتل الفرنسيين عند نزولهم إلى البر تقيم على مسافة بعيدة من المدينة ، وكان ذلك من حسن حظ الفرنسيين عند نزولهم إلى البر، أما الاحتياطات الوحيدة التي اتخذت على الجانب البري، هي أن الآغا إبراهيم أمر بإضافة المدافع إلى حامية سيدي فرج، وأرسل إليها بضع مئات من الجنود، كما أقام مخازن للحبوب من القمح والشعير في المدينة وما حولها تتسع لحوالي مئة وثمانين ألف مد، أما الجهة البحرية فقد حظيت بعناية أكثر، وخاصة الميناء، فقد كانت الحاميات والمواقع الدفاعية تمتد على بضعة آلاف من المدافع الثقيلة، وكانت مزودة بكل ما يلزم من الرجال والذخيرة .

أقيمت كذلك ثلاث سلاسل قوية متينة قرب الساحل وداخل الميناء، وكانت السفن الحربية راسية خلفها، وأمامها خمسون زورقا، ثمانية منها مزودة بالقذائف والباقية بالمدافع ذات العيار الثقيل.

كما سمح الداي لجميع العرب والقبائل بحمل السلاح الذي كان محرما عليهم سابقا، وأخبرهم أيضا بأنه سيأمر بمجرد مشاهدة الأسطول الفرنسي بأن تطلق المدفعية طلقتين اثنتين ليسرعوا إلى الحيلولة دون نزولهم إلى البر أو إعاقتهم عن ذلك على الأقل.

أرسل حسين باشا المراسيل إلى الداخل يدعو إلى الجهاد ضد الفرنسيين، فوعده الحاج أحمد باي قسنطينة بنحو 30 ألف محارب، ووعد حسن باي وهران بنحو 6 آلاف محارب، ووعد مصطفى بومرزاق باي التيطري بنحو 20 ألف محارب، وجمع شيوخ جرجرة بين 16 و 18 ألف محارب، وجمع أهالي ميزاب حولي 4 آلاف محارب.

وقعت القطيعة التامة بين فرنسا والجزائر، فقررت أن تغزو مدينة الجزائر باعتبارها مقرا للسلطة، بقوات ضخمة، وقد أعدت الحملة إعدادا محكما، فقد كان بوتان منظما ودقيقا، أتى بجميع الترتيبات لاحتلال المدينة، كما عمل ديبورمون منذ تعيينه قائدا على الحملة في التفكير وجمع المعلومات اللازمة لمهمته، وفي 20 ماي 1830

أذاع ديبورمون بيانا على ضباط الحملة والجنود حثهم فيه على حسن الاستعداد، وفي يوم 25 ماي 1830 غادرت الحملة الفرنسية ميناء طولون الحربي وهي تتألف من :

37000 جندي من المشاة والفرسان.

27000 جندي بحار.

103 سفينة حربية.

572 سفينة تجارية فرنسية وغير فرنسية تحمل المؤونة والذخائر والجنود.

تقرر إنزال الجنود عند سيدي فرج والزحف برا صوب المدينة والسيطرة على قصر الداي وكذا محاصرة المدينة بالسفن الحربية ومنع وصول المؤونة إليها.

نزلت أول هذه القوات يوم 19 جوان 1830 بميناء سيدي فرج وكأنهم جراد منتشر، ولم يكن هناك لا مدافع ولا خنادق سوى حوالي 12 مدفعا صغيرا وضعها الآغا يحيى عند بداية الحصار، ولم يكن لدى الآغا إبراهيم أكثر من 3000 فارس، وكان باي قسنطينة لا يملك إلا عددا قليلا من المحاربين، أما باي التيطري فلم يصل إلا بعد

عدة أيام من نزول الجيش الفرنسي، وأما جيش إقليم وهران فلم يكن بعيدا عن سيدي فرج، وكان باي التيطري قد وعد الباشا بنحو 20 ألف فارس ولكنه حين وصل إلى الميدان لم يأت سوى بـ 1000 رجل .

اجتمعت القوات الجزائرية بمعسكر اسطاوالي، وكان الداي حسين ينتظر النصر في معركة اسطاوالي، وفي البداية كانت الكفة لصالح قوات الداي، فأمر القائد ديبورمون بزيادة المدد والمؤونة، فقام بهجوم مضاد، هكذا تغلب الجيش الفرنسي وتمكن من السيطرة على المنطقة .

عند الهزيمة في اسطاوالي في 19 جوان 1830 هرب إبراهيم من الميدان وترك وراءه الجيش، وبعد هذه الهزيمة استولى الفرنسيون على قلعة مولاي الحسن، وشيئا فشيئا بدأت روح الهزيمة تدب في أوصال الجهاز الإداري والاجتماعي أيضا للمدينة، فجمع الداي حسين أعيان المدينة ورجال القانون والدين وشرح لهم الوضع الذي أمامهم وطلب منهم النصيحة فيما يفعل لمواجهة الموقف.

وقد وضع أمامهم السؤال التالي: هل من الصواب مواصلة المقاومة؟ أو يجب تسليم المدينة والتوقيع معهم على معاهدة الاستسلام؟ وبعد تقليب الموضوع من عدة أوجه أجابوه بجواب غامض، وهو على أنهم على استعداد لمواصلة الحرب، ولكن إذا كان رأية غير ذلك فهم يطيعون الأوامر، وقد كان للبيان الذي وزعه الفرنسيون بمهارة تأثيره على المجتمع، مقتنعين بأن الفرنسيين قد جاؤوا حقا محررين من سلطة الأتراك، وكانوا يعتقدون أن فرنسا المتحضرة لا يمكن أن تعد بشيء إلا إذا كانت راغبة في تنفيذه، فأصبح هؤلاء من أنصار الحل السلمي، وقد تسبب هذا البيان في شل الطاقة المحاربة، وزرع اليأس واللامبالاة في قلوب المقاتلين الجزائريين.

ففي ليلة 2 جويلية عام 1830م أي قبل ثلاثة أيام من دخول الجيش الفرنسي للمدينة، اجتمع عدد من أعيان مدينة الجزائر، في قلعة باب البحرية، لقد كان هؤلاء يمثلون التجار وأرباب المال، وقرروا أن ضياع المدينة أصبح أمرا محتما، وأنه إذا ما دخلها الفرنسيون عنوة فإنهم سيبيحونها

وينهبون ثرواتها ويعتدون على النساء ويقتلون الأطفال، ورأوا تفاديا لذلك قبول اقتراح الباشا الثاني الذي ينص على الاستسلام بعد توقيع معاهدة وأن الفرنسيين سيتركونهم يتمتعون بدينهم وتقاليدهم وسيتركون لهم أملاكهم ومساجدهم وزواياهم.

فلماذا إذن يقاومون الجيش الفرنسي ويزهقون الأرواح بدل التوقيع على معاهدة الاستسلام؟ وفي النهاية قرروا عدم مقاومة الفرنسين عند دخول المدينة وأرسلوا وفدا عنهم إلى القصبة لمقابلة الباشا وإطلاعه على ما اتفقوا عليه. وقد أجابهم الباشا بأنه سينظر في القضية خلال اليوم التالي.

وفي اليوم المعين 4 جويلية 1830 أرسل حسين كاتبه مصطفي مصحوبا بالقنصل الانجليزي إلى مقر القيادة الفرنسية للتفاوض مع ديبورمون، ومع المذكور ذهب أيضا أحمد بوضربة وحسن بن عثمان خوجة، وبعد التفاوض ومراجعة الباشا، وقعت معاهدة الاستسلام يوم 05 جويلية 1830 .

وقعت هذه المعاهدة بين القائد العام للجيش الفرنسي الكونت دي بورمون، وصاحب السمو داي الجزائر حسين باشا وهي تنص على ما يلي:

يسلم حصن القصبة، وكل الحصون التابعة للجزائر، وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي صباح اليوم على الساعة العاشرة.

يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي تجاه صاحب السمو، داي الجزائر، بترك الحرية له، وحيازة كل ثرواته الشخصية.

سيكون داي الجزائر حرا في أن يتصرف هو وأسرته بثرواته الخاصة إلى المكان الذي يعينه، ومهما بقي في الجزائر سيكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام الفرنسي، وسيتولى الحرس ضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.

يضمن القائد العام لجميع جند الانكشارية نفس الامتيازات ونفس الحماية.

ستبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، ولن يلحق أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم،

ولا بأملاكهم، ولا تجارتهم وصناعتهم، وستكون نساؤهم محل احترام والقائد العام يلتزم على ذلك بشرفه.

سيتم تبادل هذه المعاهدة قبل الساعة العاشرة، وسيدخل الجيش الفرنسي عقب ذلك حالا إلى القصبة، ثم تدخل بالتتابع كل الحصون المدنية والبحرية.

وفي يوم 06 جويلة 1830م دخل الجنود الفرنسيين مدينة الجزائر من الباب الجديد بأعلى المدينة وأنزلت أعلام دولة الداي من جميع القلاع والأبراج وارتفعت في مكانها رايات الاحتلال الفرنسي، وأقيمت صلاة للمسيحيين وخطب فيها كبير قساوة الحملة، فقال مخاطبا قائد الحملة الفرنسية: "لقد فتحت بابا للمسيحية على شاطئ إفريقيا" .

وبعزل الداي عن مدينة الجزائر من طرف الجيش الفرنسي وجبره على الاستلام، انتهى العهد التركي بمدينة الجزائر الذي دام 326 سنة.

مؤامرة ومتآمرون

انطلق الباي أحمد مساء الخامس من جويلية من عام الشؤم كما سماه 1830 مع نحو ستمئة فارس نحو الشرق، وقد انضم إليه هؤلاء عن طواعية وطيب خاطر في القتال إلى جانبه، ثم أراد غيرهم من أهل الضواحي الالتحاق به والانضمام إليه، فنصحهم بلطف أن يظلوا في عاصمتهم ويقاوموا فيها، إن كانوا يريدون ذلك، وقال: دار السلطان أحوج إلى سواعدكم من قسنطينة.

ثم ودعهم وانطلق نحو وادي القليعة ثم جنان الباشا، ولما بلغ قنطرة الحراش، ألقى نظرة أخيرة على العاصمة فسقطت من عينه دمعة كبيرة واحدة، ثم همس لنفسه لا دموع بعد اليوم، وإنما هي الدماء التي يجب أن تسيل.

كان المواطنون أثناء الطريق يلاحقون موكب الباي، وهم يرجون أن يسمعون منه أخبارا مفرحة، لكنه لم يجد ما يقوله لهم سوى أن دعاهم للمقاومة، فسمع جملة من أحد المواطنين الغاضبين، ظل يرددها دوما بغضب وحرقة، لقد قال وهو يلاحق عربة الباي، ماذا تركتم لنا

أيها الأتراك سوى الهزيمة، تمنى ساعتها لو لم يكن يجري في عروقه أي دم تركي.

سارت القافلة من دار السلطان إلى بايلك التيطري، وكلمات ذلك الفلاح الجزائري تقرع رأس الباي، الذي شرد في أفكاره بعيدان وكأنه يستعيد تاريخا طويلا من الحكم التركي للجزائر متمثلا بعائلته الصغيرة، فقد ورث الحكم أبا عن جد، إذ كان جده بايا ووالده أيضا، وفي خيالاته تلك، هو الوحيد الذي تجرأ وسأل نفسه ماذا قدمنا لهذا الشعب..وقال بصوت عال لم يسمعه غيره، لقد حملنا لهم الكوارث والأهوال، تبا للترك والكراغلة، التفت سائق العربة لصوت الباي المرتفع، فظن أنه يريده لأمر ما، فالتفت إلى سيده فوجده يحدث نفسه، فذهب ظنه أن صدمة الهزيمة قد أثرت على نفسيته، أما الباي فكان يحاكم في سره أثناء الطريق تاريخ الحكم التركي للجزائر، فقد حكم جده لأبيه أحمد القلي بايلك الشرق لمدة 16 سنة، أما أمه الحاجّة رقية فكانت جزائرية الأصل، من عائلة ابن قانة أحد أكبر مشايخ عرب الصحراء من الزيبان مالا وجاها، لذلك كان أحمد باي كرغليا.

ابتسم قليلا وهو يتذكر وجه أمه، لكنه فشل في تصور صورة وجه والده الذي مات مخنوقا بيد الترك بني جلدته وهو في سن صغيرة، فكانوا ينادونه باسم أمه، فيقولون له الحاج أحمد بن الحاجة الشريفة رقية، ثم فرت به والدته إلى أهلها في بسكرة عليه خوفًا من أن يلقى نفس المصير الذي لقيه أبوه، ولكي يكبر بعيدا عن الدسائس ومؤامرات القصور، فوجد الصبي الصغير كل الرعاية من لدن أخواله في الزيبان، وحظي بتربية سليمة، حفظ فيها القرآن منذ طفولته وتعلم قواعد اللغة العربية، مما زاد لسانه فصاحة، وتكوينه سعة حيث أخذ خصال أهل الصحراء من كرم وجود وأخلاق، فشب على ركوب الخيل، وتدرب على فنون القتال فاتسمت شخصيته صفة الفارس المقدام، ثم سافرت به أمه إلى البقاع المقدسة فأدى فريضة الحج وهو في الثانية عشرة من عمره، ومن ذلك الوقت أصبح يلقب بالحاج أحمد، ثم مكث في مصر حينا من الوقت، اكتسب من خلاله المعارف والتجارب بما كان له الأثر البارز في صناعة مواقفه.

ثم سرح ثانية في تاريخه الشخصي يوم تولى منصب قائد قبائل العواسي، والعواسي كلمة تطلق على القبائل التي كانت تقطن منطقة عين البيضاء وما جاورها، أما رتبة قائد فهي وظيفة حكومية لا تسند إلاّ للذين يحظون بثقة من الشخصيات المرموقة في المجتمع وقد خوله هذا المنصب لأن يضطلع برتبة أكبر ضابط في القصر، وبعدها تولى مهمة رقابة الجزء الشرقي لإقليم قسنطينة، مع حق الإشراف على قوة عسكرية قوامها 300 فارس.

وبعد تخليه عن هذا المنصب لمدة من الزمن ،استدعاه نعمان باي وعيّنه مرة أخرى قائدًا للعواسي لخبرته في الميدان، ولما زار مصر، اجتمع بمحمد علي حاكمها ووقف على منجزاته، خاصة في جانبها العسكري وتعرف على أبنائه إبراهيم باشا وطوسون وعباس.

ومازال الباي يذكر كيف ترقى إلى منصب خليفة على عهد الباي أحمد المملوك، واستطاع المحافظة على هذا المنصب إلى أن نشب خلاف بينه بين الباي إبراهيم حاكم بايلك الشرق، ما بين 1820و1821، مما أدى إلى عزله من منصبه، وخوفا من المكائد والاغتيال غادر قسنطينة

في اتجاه الجزائر، خاصة وأن إبراهيم هو الذي دبّر له المكيدة واتهمه بالتعامل مع باي تونس ضد الجزائر، إلا أن الداي حسين كشف الحقيقة وأمر بقتل إبراهيم باي عام 1821، لكن هذا تمكن من الفرار والاختفاء، بينما بقي هو في العاصمة ثم أبعد إلى مليانة، ثم البليدة حتى أصبح بايا يشهد على سقوط عاصمة الإيالة.

وصل الموكب الحربي إلى حدود بايلك التيطري، وتحديدا قرب نبع ماء صغير في منطقة برج بوعريريج، فتوقف الجند لأخذ قسط من الراحة ولإطعام أفراسهم وأحصنتهم، أما الباي فقد انتحى جانبا وجلس تحت ظل شجرة، وقد بدت عليه إمارات الحزن والشرود، ثم أخذته سنة من النوم بسبب التعب والارهاق والحرارة المرتفعة لفصل كان حارا بأحداثه وطبيعته، ولما رأى قائد جنده ذلك، أمر مفرزة من الجند بحراسته خوفا عليه من الغدر والغيلة، فمن يدري ماذا يحمل الغد من أحداث.

كان ابن الحملاوي قائد عسكر الباي، ومن الرجال الثقاة المقربين منه، وقد وصلته رسالة من نائب الباي أحمد ومستشاره ابن عيسى

تفيد بأن أهل قسنطينة عزلوا الباي أحمد، وعينوا مكانه حمود بن شاكر، ولم يشأ القائد أن ينغص على سيده مع كثرة تلك الأحداث، فأخفى بن الحملاوي أمر الرسالة عن الباي، وكان يقول في نفسه يكفيه ما به من هموم ومتاعب، وفي نفس الوقت كان يتحين الفرص ليطلعه عليها قبل الوصول إلى قسنطينية، وقد لاحظ الباي أن في فم ابن الحملاوي كلاما يرغب البوح به، لكنه كان يتردد ويتلكأ، وكان هذا التوقف فرصة سانحة ليلقي بهذه القنبلة أمام يدي الباي، فاغتم القائد استراحة الباي تلك، واقترب منه ثم استلقى بجانبه، حتى إذا استيقظ الباي من غفوته، قال القائد ابن الحملاوي: أظن يا سيدي أن علينا الإبطاء قليلا في العودة إلى قسنطينية فالأخبار الواردة من هناك لا تبشر بأي خير.

سأل الباي: عن أية أخبار تتحدث، هل يوجد أسوأ مما نحن فيه من هزيمة وتشتت؟.

قال: ربما بشكل عام كلامكم لا غبار عليه، أما بما يخصكم شخصيا فإن هناك ما يجب قوله.

قال: وما الذي وصلك من قسنطينة.. وكيف لم أعلم به مسبقا؟ ثم لا تقل لي إنهم عادوا إلى دسائسهم ومؤامراتهم؟.

قال: ليتهم اكتفوا بذلك فقط، فقد وصلتني رسالة من قائد جيشكم علي بن عيسى تفيد بأن قسنطينة يحكمها اليوم حمود بن شاكر فقد عينوه بايا.

انتفض الباي أحمد لما سمع ذلك وقال بغضب وقد ارتفع صوته مجلجلا: عينوه..من الذي عينه؟ قل هو اغتنم فرصة غيابنا وعين نفسه.

لم ير الباي أحمد أية جدوى من توجيه اللوم والعتاب إلى قائد جنده، إذ كان تصرفه وكتمانه للخبر هو عين الصواب، وما تمليه الظروف التي استجدت، فلا يعقل أن يشغل الباي بمثل هذا الأمر والبلاد كلها تواجه الخطر، لذلك اكتفى بهز رأسه موافقا على عمله، ثم قال: أرى من الضروري أن نرسل إلى المدينة من يأتينا بأخبارها، ولن أنصب نفسي حاكما على سكانها إذا كانوا يعتقدون أن هناك من هو خير مني.

قال ابن الحملاوي: نعم من الحكمة أن نتريث قليلا ريثما نعرف حقيقة الأوضاع هناك، وقد أرسلت من يسبقنا إليها، لعلنا نتبين مواضع أقدامنا، ومن المؤسف أن يحدث ذلك وفي مثل هذه الظروف.

قال الباي: لولا هذه الدسائس الخبيثة والنوايا الدنيئة، لما تمكن عسكر فرنسا من النيل من هيبتنا، ألا تعتقد ذلك؟.

لم يجد ابن الحملاوي ما يعلق به، فقد كان عربيا ومن أصل عربي، أما الباي فكان نصفه عربي ونصفه الآخر تركيا، لكنه كان يميل إلى العرب الجزائريين أكثر من رغبته في أبناء عمومته من الترك، فلم ينل من هؤلاء الترك إلا كل شر وبلية، وهو لا ينكر ذلك، وكان يعرف في قرارة قلبه أنه لولا الجزائريين لطار رأسه منذ مدة طويلة، لذلك هو يحفظ لهم هذا الجميل.

لاحظ الباي تردد ابن الحملاوي وتحفظه، فقال نيابة عنه: إنها الحقيقة يا ابن الحملاوي، ولا أعتقد أنه يمكنك الجدال والمراء في الحق.. أليس كذلك؟.

بعد دراسة للموقف، قرر الباي المكوث في برج بوعريريج ريثما تعود عيونه من قسنطينة، وفي البرج اجتمعت إليه قبائل عربية وأمازيغية وبعض العائلات التركية، وهم من أبناء المنطقة، مثل قبائل مقدم وولاد خلوف ولحشم وولاد صخر، وقبائل قلعة بني عباس وإغيل علي، فبايعوه على الجهاد والقتال تحت رايته، ولما رأى ذلك منهم، وإصرارهم على قتال الفرنسيين، لم يجد ضرورة للانتظار فقرر العودة إلى قسنطينة مهما كان الحال.

قبل أن يتحرك موكبه نحو المدينة، جاءه من العاصمة من يحمل إليه أخبارا قد تكون سارة لغيره، ولكن ليس لشخص مثل الحاج أحمد فقد كانت تعني له الهوان والخذلان، وتلك مفاجأة لم يكن الباي أحمد يتوقعها.

كان مستلق في ديوانه، بعد تناوله لطعام الغداء، رفقة قائد جنده وبعض الضباط الكبار، فدخل عليه من يخبره أن وفدا فرنسيا حضر من العاصمة خصيصا لمقابلته، فلم يصدق الباي ما سمعته أذناه، وظن أن في الأمر مكيدة تركية جديدة، لكن أعضاء الوفد لم ينتظروا موافقة الباي

على لقائهم، فكانوا أمام الباب، فأذن لهم الباي بالدخول، وقد رفض مصافحتهم، فتحدث أحدهم ويدعى الخواجة سليمان بلغة عربية سليمة قائلا، إن الجنرال الفرنسي دوبريمون يقدم له عرضا معقولا ومغريا، فاستفسر عن ماهية هذا العرض، فقال سليمان: يمكنك البقاء بايا على قسنطينة مع الحفاظ على كامل امتيازاتك وصلاحياتك، بشرط أن تقدم الضرائب والخراج الذي كنت تقدمه للداي حسين إلى الإدارة الفرنسية.

التزم الباي الصمت، وهو يصغي باهتمام لما يقوله هؤلاء الغرباء، ولما لاحظ الخواجة سليمان صمته، تابع في شرح مغريات عرضه، يمكنك التفكير فيما اقترحناه عليك، ولا أعتقد أن عرضا مثل هذا يمكن رفضه، ونحن نكن كل المحبة والمودة لكم أنتم أبناء بايلك الشرق، ولعلك تعرف يا سيدي أن حكومة فرنسا لم تكن تفكر في غزو الجزائر إلا بموافقة السلطان العثماني، فقد تمادى الداي حسين في غيه وطغيانه وعدوانه، فلاقى الجزاء الذي يستحقه. صمت قليلا وهو ينظر إلى وقع كلامه في وجه

الباي وملامحه..ثم تابع: ولم يكن السلطان في إسطنبول راض عن تصرفات الداي المغرور، ولا عن سلوكه الأرعن، أما أنتم فليس بيننا وبينكم إلا كل خير ومودة.

شعر الباي بالإهانة من تلميحات هذا الأجنبي، وهو لم يكن يعرف حقا أن فرنسا نسقت مع الآستانة في احتلال الجزائر، ثم إن علاقته بالداي حسين كانت في أبهى وأطيب حالاتها، ولم ير من الداي إلا كل خير ومودة.

قال الباي بعد أن قلّب الأمر في رأسه: اذهب إلى جنرالك وأخبره أني أرفض عرضه تماما، ولست أنا ممن ينكثون وعودهم ويطعنون الأصدقاء في... لم يتمالك الخواجة نفسه، وهو يستمع إلى هذه المحاضرة الأخلاقية، فقال مقاطعا: لكن يا سيدي، لا ينبغي أن أذكرك بأن الداي حسين قد استسلم لقواتنا، وأن العاصمة اليوم بيدنا، بل إن قواتنا تقدمت في جميع المناطق البحرية الشمالية، ولا أجد أي داع للمقاومة والعناد.

قال الباي: يبدو أن حكومتكم لم تعلمكم أدب الحديث والحوار، ثم إنني لا أعترف إلا بسلطة مولانا

السلطان في إسطنبول، لكم أن تأتوني بموافقته وساعتها سوف أقبل اقتراحكم.

غادر الوفد الفرنسي الذي يقوده اليهودي سليمان، دون تحقيق نتيجة تذكر، فاتخذ الفرنسيون قرارهم بمحاربة الباي والقضاء عليه، فقد استعد هؤلاء لجميع الظروف والأحوال، وليس أسهل عندهم من ضرب التركي بالجزائري والتركي بالتركي، والجزائري بالجزائري، وتلك هي سياسة الاستعمار ودينه وديدنه، ولم تكن هذه الحقائق لتغيب عن بال الباي، بل هي المتوقعة والقابلة للوقوع.

لم يبت الباي ليلته تلك في البرج، فقد حزم أمره واتخذ قراره، فلا بد من العودة إلى قسنطينة وليكن بعدها ما يكون، فقال الباي بعد أن صلى صلاة الاستخارة: اللهم قدم لنا الخير والرحمة بلطفك وعفوك، ثم نادى المنادي إلى قسنطينة.

كان أعداء الباي من الأتراك قد أجمعوا على قتله، والفوز بمنصبه وثروته، ومن هؤلاء كان فرحات بن

سعيد، وإبراهيم الكريتلي، ومحمد الصغير بن نعمون، وأحمد الشريف الريغي، وعبد الرحمن سلطان تقرت، وغيرهم، وقد علم الباي بمكيدتهم من قائد جيشه ومساعده علي بن عيسى الذي ظل وفيا لسيده في قسنطينة.

فقد اجتمع هؤلاء في إحدى ليالي جوان في دار سلطان تقرت، وأجمعوا أمرهم على الإطاحة بالباي وقتله، وكانت كل خشيتهم من ميوله وعواطفه العربية، فلم يعتبروه أبدا كواحد منهم، بل كانوا ينظرون إليه بعين الريبة والشك، وفي دارة السلطان، كان لابن عيسى من يخبره بما يحدث ويجري، فقد زرع الرجل في مكان حيوي أكثر من عين، تنقل له كل ما يحدث، وتلك سياسة تعلمها من الأتراك، الذين علموه ألا يثق بأحد غير نفسه.

استمع رجل ابن عيسى وعينه لما يخطط له هؤلاء، وعرف خططهم ومكائدهم، فسارع بالخبر إلى سيده فأطلعه على ما بيته هؤلاء، وما ينوون عمله، وقام هذا من جهته بنقل الخبر على جناح السرعة إلى الباي، فوصل رسول بن عيسى إلى صاحب الموكب بعد تحركه من برج

بوعريريج، وكانت رسالة بن عيسى شفوية، إذ لم يكن هذا الرجل يأتمن أحدا سوى نفسه.

شهد بايلك الشرق منذ 1830 ظهور حزبين، أحدهما ينادي باستمرار النظام التركي العثماني، تزعَّمه المتآمرون على الباي الغائب، وكان هؤلاء جميعا من الترك وعلى رأسهم حمود بن شاكر، حيث كانوا يعتقدون أنّ الحاج أحمد ليس منهم، رغم أنه كرغلي، لكنه وطني بالأمومة والعاطفة والتكوين، وكانت كل خشيتهم ليست على أنفسهم فقط، وإنما على نظام الحكم التركي برمته، أي الولاء لاسطنبول.

أمّا الحزب الثاني فقد تزعّمه أعيان قسنطينة وعلى رأسهم الشيخ محمد بن الفكون، شيخ دار الإسلام، الذي كان صاحب كلمة مسموعة ومستجابة، يُضاف إلى هذا أنّ الحاج ابن قانة خال الباي أحمد، لعب دورًا في إقناع أعيان قسنطينة وعنابة وقالمة وغيرها بجزائريّة الحاج أحمد وعروبته، فهو يحمل دم أمه أكثر مما يحمل من دم والده الذي لا يعرفه.

وصل موكب الباي إلى أسوار قسنطينة بعد نحو ثلاثة أسابيع ونيف فلم يدخلها، وإنما أرسل أحد دعاته إلى أبناء المدينة وأعيانها، وقال لهم، إذا كنتم ترفضون وجودي بينكم، وكنتم موافقين على خلعي، فابعثوا إلي عائلتي وكامل أفراد أسرتي، وسوف أغادركم إلى أخوالي في الزيبان، وإلا فانظروا أمركم.

اتفق شيخ المدينة وعالمها ابن الفكون مع زعيمها الآخر محمد البجاوي، فانقضوا مع أتباعهم على الباي المزيف بن شاكر، فقطعوا رأسه وخرجوا به إلى الباي المعسكر وراء الأسوار، ثم تخلصوا من بقية الأتراك المتمردين، ومن هؤلاء من فرّ وهرب، ومنهم من التحق بالفرنسيين، وأعادوا الحكم للباي أحمد، الذي اعتمد على العنصر الوطني أكثر من ذي قبل، فقد سقط النظام المركزي التركي بالعاصمة، الذي كان يمكن أن يمدّه بالدعم العسكري، وبَعُدَت الشُّقَّة بينه وبين الباب العالي في إسطنبول، وكثر خصومه المنادون برأسه والساعون إلى منصبه.

كان الباي طويل القامة، ضخم الجثة رياضي المظهر، صاحب لحية كثة، عيناه ثاقبتان يقرأ فيهما عقلية محدثيه، وأخذ من أمه ملامحها الطيبة الأصيلة، ولم يكن منتفخا مكرشا، تتدلى أمامه كبقية حكام زمانه، ولم يعرف له أية مغامرات نسائية إذ اكتفى بزوجتيه الجزائريتين، فلم يعرف الحريم التركي الذي ساد في وقته، إضافة إلى تدينه وفروسيته، فهو صعب المراس قوي الشخصية، وقد تجلى ذلك في بنيته الجسدية وطبيعة تربيته، وكان مؤمنا وَرِعا، لكنه ورث العناد والحيلة.

بعد تخلصه من أعدائه، أفلت بعض الانقلابيين من قبضته، فكان الباي متوترا حذرا، فلم يعد يعرف بمن يثق ولمن يستمع، فوجد في الجزائريين خير صديق وخليل، لما لمس منهم من إخلاص ووفاء وطيبة، فكان يردّد في نفسه، لو أن الداي استمع لنصائحي لما كان هذا حاله، لكنه هو نفسه لم يسلم من غضب الأتراك وحقدهم عليه بسبب علاقته الوثيقة مع العرب والأمازيغ، وكثيرا ما كانت تعتريه

حالات من الكآبة والحزن، فيهرع إلى الصلاة والذكر، وذات ليلة جفاه النوم، وكثرت واختلطت الأفكار في رأسه، فقام من سريره على مهل، وذهب إلى مكتبه في القصر، وأخذ يفكر بالمستقبل الغامض الذي ينتظره، فمن يدري ما ستحمل له الأيام من مفاجآت، فقد كثر الشر واستفحل، وشح الخير وكاد ينقطع، فأحست الزوجة بما يشغل بال شريكها، وقد أدركت بحسها الأنثوي أنه يعاني من زلزال داخلي يكاد يعصف به، فلحقت به زوجته فاطمة ابنة باي التيطري بومرزاق، وأرادت المرأة أن تشارك زوجها همومه فسألته عما يزعجه ويؤرق منامه، فأخبرها بأنه يفكر في أفضل الطرق لإبعاد شبح الخطر الفرنسي عن مدينته، وهاهم الفرنسيون يقدمون له الإغراءات لإبعاده عن المقاومة والتفكير في القتال.

قالت المرأة: إن أهل المدينة يحبونك ويسمعون لك، ولا أرى أي مبرر لهواجسك تلك، وإن وجدت فيما يعرضونه عليك أي خير وفائدة فخذ به، وتوكل على الله.

قال الرجل لزوجته: وهل تظنين أن هؤلاء الكفار الأغراب سيقدمون لنا أي خير يذكر...إن سمهم في عسلهم.

قالت: إذن عليك بأهل مدينتك وأعيانها فإنهم خير من يعينك على اتخاذ قرارك، ليس عليك أن تخشى من عدم وقوفهم معك.

قال: ومن قال لك إني أخاف أهل مدينتي وأخشاهم، إن كل همي الآن يتمثل في تلافي الأخطاء الفادحة التي ارتكبها الذين سبقونا، فلولا التهور والصلف والتسرع، لما كان هذا حالنا.

فهمت المرأة إلى ماذا يلمح زوجها، فقالت وهي تعدل من جلستها، وترفع شعرها إلى الوراء: هل تقصد الأتراك بكلامك هذا؟.

قال: ومن غيرهم يا زوجتي العزيزة؟.

قالت: إذن ماذا تنوي فعله، واقتربت المرأة من زوجها الجالس وراء مكتبه، فشم رائحة عطر الياسمين

الشذية، فقال: سوف أبعد جميع الأتراك من مجلسي ولن أعتمد إلا على العطر الوطني أقصد العنصر الوطني من الجزائريين المخلصين من أبناء البايلك..ثم ضحك الباي ومعه زوجته لهذه الملاحظة.

قالت: وهل ستحارب العسكر الفرنساوي أو تقبل السلم معهم؟.

قال: الأمر مرهون بما سيأتيني من السلطان في إسطنبول، فله وحده الكلمة العليا في ذلك.

قالت: وما هو موقف والدي مما يجري؟.

قال الباي: لقد أعلن والدك الحرب على فرنسا يوم كنت في العاصمة، وقد عرفت أنه تحالف مع الحاج السعدي وبن المبارك وهم يناوشون العسكر الفرنسي... لا تقلقي على والدك باي التيطري إنه رجل يعرف ما يريد، وصاحب نخوة وكرامة وشهامة.

سرت المرأة لهذا الإطراء الذي كاله زوجها لأبيها، ولم تكن هي بحاجة لمن يخبرها عن والدها، فهي أعرف

الناس به، لكنها كانت ترغب في معرفة موقف زوجها من ذلك الأب الثائر.

أشرق وجه المرأة بالحبور والفرح، ولاحظ الباي الجمال الخارق لهذه الزوجة الوفية، فاحتضنها بكلتا يديه، وقبلها من رقبتها، فأفلتت نفسها عليه، ثم قامت مسرعة نحو غرفة النوم، فقال الباي ضاحكا: حرب هناك ومطاردات هنا، تكفينا واحدة.

فجاءه صوت ضحكاتها الغناج، ثم قالت وهي تقبل على زوجها: ليت كل الحروب والمطاردات مثل حربنا.

للنساء تأثيرهن على الرجال، ومن يقول غير ذلك فهو يجهل المرأة ويجهل أيضا طبيعة الرجل.

كانت زوجة الباي مستشاره غير المنظور، إذ كان يلقي أمامها بهمومه ومتاعبه، وما ينغص عليه عيشته، وكانت المرأة ذات علم وثقافة وجمال، ولم تكن لتترك زوجها حائرا حزينا مهموما، بل كانت تخفف عنه وتحمل بعض همومه، وتنصحه بما أوتيت من سعة صدر ونقاء عقل.

وبالفعل لم ينتظر الحاج أحمد طويلا، فقام من فوره بالإعلان عن تشكيل مجلس من أعيان قسنطينة وكبارها وعلمائها، وكان على رأسهم ابن الفكون ومحمد البجاوي وعلي بن عيسى وابن الحملاوي والمقراني وغيرهم.

وشرع في سلسلة إصلاحات جديدة وفعالة، فلا بد من التطهير والتنظيف والتغيير، تلك هي المحاور التي عمل عليها الباي، فطهّر الجيش من العناصر التركية المخربة، واعتمد على العنصر الجزائري بعدما رآه منهم من إخلاص ووفاء.

كما نظف المالية من المفسدين والمتلاعبين والمرتشين، وكان معظم هؤلاء من الأتراك أيضا، وقد جلبت إليه هذه السياسة الجديدة نقمة أبناء عمومته، وكان جل اهتمامه منصبا على الجيش، فهو يعول عليهم كثيرا في المستقبل.

انشغل الباي مع أعضاء مجلسه في التحضير للحرب، فأشار عليه بن عيسى أن يستعين بولاته كي يجمعوا له الذخيرة والسلاح، فبدأ بإرسال المبعوثين إلى الولاة في

قالمة وجيجل وزواوة وغيرهم، لكنه عندما أرسل إلى أهالي عنابة وكبارها ليجمعوا له ما باستطاعتهم من الذخيرة والبارود، لسد حاجة الجيش الملحة لهما، وقد كان يخشى قيام الفرنسيين بإعلان الحرب عليه، بعد رفضه لمقترحهم، فقد ذهبت الحكومة المركزية إلى غير رجعة، وهو إن دخل المعركة مع الفرنسيين قد لا يجد المدد الذي يحتاجه، وخاصة بعد تأخر السلطان العثماني عن مراسلته ومد يد العون له.

تعرض الباي لمأزق مع أهالي عنابة، لم يحسب له حسابه، فقد ولى على عنابة الحاج عمار، وهو من رجال الباي، وكلفه بملاحقة المتمردين الذين لجأوا للمدينة، لكن هذا الأخير كان يحظى بسمعة سيئة عند سكان عنابة، فشق هؤلاء عصا الطاعة، ولم يمتثلوا لأوامر الباي ورفضوا أن يرسلوا له طلبه، فبعث إليهم قوة عسكرية لتأديبهم، فطلب منه أعيانها أن يستجيب لطلبهم بعزل الحاج عمار، ففعل.

اغتنم إبراهيم باي قسنطينة السابق هذا الخلاف، فقدم إلى عنابة واستقبله السكان بكل حفاوة فتنبه الحاج أحمد لذلك، وقام بعزل الحاج عمار عندئذ فتح سكان عنابة أبوابهم الواسعة وعاد الهدوء.

ولما علم إبراهيم بذلك، سقط في يده، وعرف أن خطته للإيقاع بالباي أحمد قد فشلت، فانسحب إلى القصبة مع عشرات من الجنود الأتراك، وقام جنوده بإخفاء الخائن يوسف المملوك مع ثلاثين جنديا من الفرنسيين.

أعطى الباي أوامره بعدم قتل الفرنسيين أو التعرض لهم، وأرسل لهذا الغرض أحد رجاله من الجزائريين، الذي طلب من الجميع معاملة الجنود والضباط الفرنسيين كأصدقاء وضيوف، لكن هؤلاء لم يكونوا ضيوفا بل جواسيس أرسلهم الجنرال كلوزيل لكي يمهدوا له الطريق إلى عنابة.

لم يستسغ أعيان قسنطينة أوامر الباي الجديد، فكيف يستضيف الأعداء ويؤمن لهم الحماية والرعاية؟.

سأل ابن الفكون مستشار الباي بن عيسىٰ، عن حقيقة ما يجري، فأنكر بن عيسىٰ بمعرفته لنوايا الباي، وقال: أرىٰ أن تسأل الباي فهو خير من يجيبك علىٰ ذلك؟.

أما رشيد المقراني، فذهب به الظن أن الباي باعهم دون أن يعلموا، فاتفق هؤلاء علىٰ وضع حد للباي إن هو فكر بمصالحة الفرنسيين والتعاون معهم.

أثار موقف الباي حفيظة محمد البجاوي أيضا، ولم يتمالك هذا نفسه، فقال لصديقه ابن الفكون بعصبية بالغة: لن نكرر سيرة الحاشية التركية التي طردناها من بين صفوفنا، وسوف أذهب بنفسي إلىٰ الحاج أحمد وأسأله وأتبين منه حقيقة الأمر.

توجه من فوره إلىٰ مكتب الباي مستفسرا عن سبب عدم قتله للفرنسيين، وكان الباي أثناء ذلك مشغولا مع عماله في المالية، ولما لاحظ الباي حالة الغضب التي كان عليها البجاوي، ابتسم له بلطف كاشفا عن أسنان بيضاء ناصعة، ثم قال وهو يرحب بالزائر مخففا من حدة غضبه: هل تعتقد يا ابن البجاوي أن الخائن إبراهيم... حاشا

سيدنا إبراهيم عليه السلام طبعا، ومعه جنده من الرافضة والخوارج، وتلك صفة أطلقها الباي على الأتراك الذين وقفوا ضده، لم يكن يخطط لأمر ما عندما صنع ذلك، يجب أن نكون أكثر حكمة وبصيرة.

قال البجاوي: هلا وضحت الموقف أكثر.

قال: كل ظني أنه أرادني أن أقتل الفرنسيين، ليدفعنا بعدها إلى إرسال جيشنا خارج المدينة نحو عنابة، وهناك سوف نجد أنفسنا في مأزق لم نكن نحسب له حسابه.

قال: تقصد إنها الخديعة والغدر؟.

قال الباي: وهل عرفت منهم غير ذلك أيها العزيز المحترم.

سر شيخ الديار لما سمع ذلك وارتاحت نفسه، فقد ذهب به الظن أن الباي قد يكون وافق على شروط الفرنسيين دون علمهم.

وجد الباي أحمد نفسه غارقا في مشاكل وهموم أبعدته عن ساحات الوغى والحرب، فقد عاد إلى قسنطينة لحمل راية القتال ضد الغزاة، فوجد الفوضى

والخراب والدسائس في مدينته، فكان لا بد له من تنظيف عرينه وإعادة تنظيمه من جديد، وبيته كان بحاجة إلى ترتيب وتنظيم وتنظيف، ولما دخل عليه قائد جيشه ومعاونه بن عيسى، وجده مهموما متوترا، فقام الباي من مقعده وضرب يده الخشنة بالطاولة وقال: العدو يحدق بنا من كل ناحية وهؤلاء الشراذمة يتآمرون ويخططون للإستيلاء على الأموال والمتاع، وكل ظني أن ليس لهم ما يشغلهم في هذه الحياة سوى أنفسهم.

قال بن عيسى: ليس هذا بالأمر الجديد علينا يا سيدي، فأنت كما تعلم لم تنج من شرورهم يوما واحدا.

قال: لكن ليس في مثل هذه الظروف العصيبة، لدي تقارير تؤكد أنهم يتعاونون مع الفرنساوي ضدنا.

لم يكن الباي مخطئا في ظنه واعتقاده، فقد تحالف الترك فيما بينهم، وأجمعوا أمرهم على تسليم عنابة للفرنسيين، بعدما وعدهم هؤلاء بتمكينهم من حكمها وإدارتها.

وكان الباي قد نفض يده من السياسة التركية القديمة، المتمثلة في الحكم الفردي، واتخاذ القرارات دون الرجوع

لمجلس استشاري يشترك مع الحاكم في اتخاذ القرارات المصيرية، وكما قال الباي لصديقه ومستشاره بن عيسى، وهل من خطر يحدق بنا جميعا أكثر مما نحن فيه، فالفرنسي يقرع أبوابنا وبعضنا يرغب في فتح الأبواب له.

لم يكن الباي حاكما شوريا بالمعنى الديني الذي يعرفه هو نفسه تمام المعرفة، لكنه لم يكن متسلطا ولا مستبدا مثل حكام زمانه، فقد وجد أن خير طريقة للعمل تكمن في المشاورة والحوار، فجمع مجلس أعيان المدينة وقال لهم: إن الفرنسيين سوف يهاجمون عنابة وأخشى أن يتمكنوا من احتلالها، وهم لن يبقوا فيها، فماذا ترون أنتم...وماذا تقترحون علي؟.

قال ابن الفكون: نعم كل الدلائل تشير إلى ذلك، كل الأمل في مساعدة السلطان لنا.

أما المقراني، فرجّح أنهم سيهاجمون بجاية وليس عنابة، وقد علم من أهل زواوة أنهم شاهدوا عدة سفن حربية تقترب من ميناء المدينة.

لكن الباي أوضح لهم صدق معلوماته، وأنه لا يشك فيها إطلاقا، وربما كان الفرنسيون يناورون للتمويه، لكن عنابة هي هدفهم ومقصدهم، ثم قال محذرا: وأنتم تعلمون معنى سقوط عنابة، سوف تكون قسنطينة هي الهدف التالي.

سأل ابن الفكون: لكن لماذا لن يستقروا فيها إن كانوا سيحتلونها؟.

قال الباي: ليست لديهم المقدرة على ذلك، فهم يحتاجون لعدد كبير من القوات لنشرها عبر كامل الوطن، والمرجح أنهم سيعتمدون على العنصر التركي والمتعاونين معهم من السكان.

قال ذلك وقد احمر وجهه خجلا، وتلك هي المرة الأولى التي يسمعون فيها الباي يندد صراحة بأبناء عمومته من الأتراك.

لما سمع شيخ الديار ذلك، تنحنح كثيرا حتى لفت الحضور إليه، فاستحثه الباي على الحديث، فقال: لا شك أنكم سمعتم ببيعة أهل الغرب للشيخ محيي الدين وابنه عبد القادر، لقد أصبح عندنا أمير منا.

صعد الدم إلى رأس الباي لما سمع باسم محيي الدين وابنه، فاكتسى وجهه بلون أحمر قان، وشعر بيده ترتعش رغما عنه، ولم يتمكن من إخفاء مشاعره تجاه هذا الخبر، فأخذ يتشاغل بمسبحة كانت بيده، وقد اتجهت أنظار أهل المجلس إليه، فعلم أن لا بد له من الكلام والتعقيب، فقال: هم في الغرب ونحن في الشرق، فليتدبر كل طرف نفسه.

كان الباي يشعر بالإثم، وكأنه مثل اللص الذي سرق وديعة ويظن أن الجميع يعلمون بأمره، مع أن لا أحد يدري بالذي حدث سوى ابن عيسى، فقد وصل رسول من طرف الأمير الشاب عبد القادر وكان عمره يومها 28 عاما، بينما كان عمر الباي نحو 50 عاما، وقد طلب منه رسول الأمير عبد القادر أن ينضم مع جيشه للبيعة لقتال الغازي الفرنسي على السواء، لكن الباي أخفى الأمر عن الجميع، إلا عن مستشاره بن عيسى، ولما سأله هذا عما ينوي عمله، قال: لن أنضم لابن محيي الدين ما حييت.

وانتهى الحديث بينهما عند هذا الحد، ولم يفتحه أي منهما بعد ذلك أبدا.

أعلنت قسنطينة حالة النفير العام، حسب تعليمات حاكمها، فجرى تجنيد كل شاب قادر على حمل السلاح، فأصبحت المدينة بمثابة ثكنة عسكرية كبيرة، حيث انخرط جميع ساكنتها في العمل العسكري، وساهمت النساء في أعمال الحياكة والترقيع، لتوفير ما يلزم من ثياب ومؤونة وغيرها، وكان الباي على موعد مع المعركة التي كان يتمناها ويخشاها.

في ربيع عام 1832 تقدمت السفن الفرنسية نحو ميناء المدينة وحاصرته، ثم تقدمت قوات فرنسية من جهة البر، وبدأت مدفعية السفن بدك المدينة بوابل من القذائف الحارقة، فسقطت دفاعات المدينة البحرية التي لم تكن معدة لمثل هذا الهجوم، وكان قائد الحملة الفرنسية الجنرال كلوزيل شرسا وهمجيا إلى أبعد الحدود، فقد استمر قصف المدينة دون هوادة طيلة يوم بأكمله، وكان كل همه أن يبعد المقاومين عن المدينة، ثم نزلت قواته على شواطئ المدينة، فاصطدمت بعشرات المقاومين الذين يقودهم علي بن عيسى، بينما وقف الباي خارج المدينة يتابع سير المعركة عن

بعد، استبسل أهالي عنابة ومن معهم من المقاتلين من بقية أنحاء البايلك في المعركة، للدفاع عن ديارهم وأهلهم، فتحول القتال إلى حرب مواجهات فردية، ومن شارع إلى شارع ومن زقاق إلى زقاق، انتقلت المعركة إلى داخل المدينة، بينما تولت المدفعية الفرنسية دك ضواحي المدينة، لإبعاد أي قوة تفكر في التقدم نحوها.

وبعد أيام من القتال، انسحبت القوات الجزائرية من عنابة، فقد أصبح من العبث الدفاع عنها، خاصة أن الفرنسيين أحكموا خطتهم في حصارها وقصفها.

ارتدّت جموع المقاتلين الجزائريين ومن معهم من الجنود نحو الشرق، وكان كل همهم استدراج القوات الفرنسية خارج المدينة، لكن هؤلاء اكتفوا بالسيطرة عليها، ثم عينوا ابن المملوك واليا عليها.

تلقى الحاج أحمد رسالة من السلطان العثماني محمود الثاني يطلب منه الثبات في المقاومة وتجنب إبرام أي صلح أو اتفاق مع الفرنسيين، ووعده بإرسال نجدة عسكرية في الوقت المناسب. وطلب منه أيضاً البقاء على اتصال دائم به.

الانتصار المر

لجأ الحاج أحمد إلى المناورة مع القوات الفرنسية وعملائهم من الجزائريين، بانتظار وصول النجدة العسكرية العثمانية، وكان الوقت يمر بتثاقل وبطء، وذلك ما كان يكرهه الباي ويمقته، فليس هذا وقت التأخير، فكل ساعة تمر لها حسابها، والمثل اليوم في العجلة السلامة وفي التأني الندامة، وقد سأل بحنق: ما الذي يؤخرهم عن نجدتنا؟.

قال ابن عيسى وهو يرى اليأس يتسلل إلى قلب سيده وحاكمه: ربما هم في الطريق إلينا، وقد أخرهم البحر في هذا الوقت من السنة.

قال الباي: لقد قطعت هذه الطريق البحرية قبل اليوم عدة مرات، ولم أجد ربانا واحدا يقطعها في أكثر من سنة، هز رأسه بسخرية مرة وتابع، ربما ضلوا الطريق فوصلوا إلى جدة.

ابتسم ابن عيسى لهذه المزحة المريرة، فلم يكن هذا وقت الضحك والمزاح، لكنه يعلم مثل غيره أن السلطان الذي يراهن عليه الباي قد خذله، وكان ابن عيسى قد أشار على الباي أن يقبل المقترح الفرنسي الذي حمله إليه حمدان خوجة، لكن الباي رفض بشدة، فليس هو كما قال من يستسلم بهذه السهولة.

كان ابن الفكون والبجاوي من الحضور، فوجد الرجلان أن عليهما التخفيف قليلا عن الحاكم، رغم أنهما لا يشاطرانه الرأي في الولاء للسلطنة العثمانية، نهض الباي من مقعده، وأخذ يتجول في الغرفة كمن يبحث عن شيء فقده، ثم اقترب من مقعد ابن البجاوي، فأراد أن يسأله أمرا لكن كرامته وعزة نفسه منعتاه من السؤال.

كان الباي يحترم هذا الرجل ويهابه أيضا، لصلابته وشدته وغيرته على الحق، ويرتاح كثيرا للحديث معه، رغم أنه كان يعارضه في كثير من تصوراته، والباي يعرف في قرارة نفسه أن ابن البجاوي يقول الحقيقة، غير أن

طبيعة أهل الحكم يحبون سماع أشياء يكرهونها لأنفسهم، ولم يكن هذا الرجل يعرف النفاق والمراءاة، وقد فطن الشيخ الجليل أن الباي يريد منه أمرا ويخجل من سؤاله، فبادر هو لطرح السؤال فقال: هل يمكنني أن أخدمك بشيء يا سيدي؟.

قال الباي: العفو أيها الشيخ المبجل، بل أنت سيدنا جميعا، لكن هل يمكنني الاعتماد عليك في الذهاب إلى الآستانة لتأتيني بالخبر الذي أحب سماعه.

قال ابن البجاوي: لن أقصر عن ذلك طالما قدرت..ولكن أليست الجزائر أقرب إلينا من تركيا؟.

قال: وكيف ذلك؟.

قال: نتحالف مع الأمير عبد القادر ونضم قوتنا إلى قوته، وساعتها لن تقدر علينا عساكر فرنسا جميعها.

امتعض الباي من سماع اسم الأمير، وامتقع وجهه، ولو أن واحدا غير ابن البجاوي قال ذلك، لوقع عليه غضب الباي ولعنته، ولكنه لا يستطيع أن يرفع صوته عليه،

إن لم يكن احتراما لسنه ومركزه، فلعلمه وتقواه، فقال بعد تلكؤ متعمد: إن أميركم لا يعترف بالسلطان ولا يدين بالولاء له، وأنت كما تعلم لا أستطيع الخروج عن رأي السلطان ولا عن حمايته، هو سيدنا ومولانا وولي نعمتنا.

لم يخلصهم من هذا الحرج، وينسيهم ما كانوا فيه من جدال، الذي كان بسبب ذكر الأمير، سوى دخول وفد العاصمة عليهم، فقد وصل حمدان بن عثمان خوجة، موفداً من الحاكم الفرنسي العام للجزائر، فدخل عليهم المكتب مباشرة، وكان هذا الرجل من أعيان العاصمة وابن أحد أعيانها، وهو من المثقفين المتعلمين الذين كان لهم دورهم البارز في المفاوضات التي جرت مع الفرنسيين بخصوص استسلام الداي، ولم يكن بالرجل المجهول من الباي، فهو يعرفه ويكن له احتراما وتقديرا.

بعد التحايا والسلام، نهض الرجال الثلاثة البجاوي وابن الفكون وابن عيسى، ليتركوا الباي مع ضيفه، لكن الباي طلب منهم البقاء، فلم يأت حمدان خوجة من

العاصمة إلا لسبب يخصهم جميعا، وكانت تلك رغبة خوجة نفسه، فالقضية التي جاء من أجلها تخص بايلك الشرق بأسره، اتخذ كل رجل منهم مقعده، فقال حمدان خوجة، إنه جاءهم بحل وسط يوفر عليهم دماء كثيرة ودمارا عظيما، فاستبشر الباي بهذا الخبر، وسأل بلهفة عن طبيعته، فأخبرهم حمدان خوجة أنه جاءهم حاملا عرضا من الفرنسيين، يقضي باستسلام الباي واعترافه بالسلطة الفرنسية على الجزائر، وأن يدفع ثلاثة ملايين فرنك فرنسي غرامة عن الحروب السابقة، وضريبة سنوية مقابل إبقائه في منصبه.

قال الباي: لن أوافق على أي مقترح فرنسي، إلا إذا وافقني أعيان قسنطينة وساداتها عليه، فماذا ترون أيها السادة؟.

قال ابن عيسى: ليس أفضل من ذلك على أية حال، أما ابن الفكون والبجاوي، فاستبشرا خيرا به، طالما لن يضعهم وجها لوجه مع الفرنسيين، لكن ابن البجاوي

أضاف: نعم هو يوفر علينا الدماء والدموع، لكنه لا يحفظ مروءة ولا كرامة.

بعد أخذ ورد وجدال، استمر لما بعد منتصف الليل، قال حمدان خوجة: عليكم أن تحزموا أمركم وتتخذوا قراركم، فليس الوقت في مصلحتنا على أية حال، وهنا انشرح صدر ابن الفكون وصديقه، عندما تحدث ابن الخوجة بصيغة الجمع، فقد وضع نفسه معهم، فعقب الباي: سوف نرد عليك في أقرب وقت.

قال حمدان: لست هنا لأخوفكم، ولكن ما أعرفه جيدا، أن الفرنسيين يبيتون لكم ما لا يحمد عقباه، وما أن ينتهوا من صراعهم مع الأمير حتى يتفرغوا لكم، فعليكم ألا تضيعوا هذه الفرصة.

قال الباي: أرى أنك تتحدث باسم حاكم الكفار، وأظنك بعد قليل ستتعامل معنا كما يتعاملون معنا.

شعر السيد حمدان بالحرج من تعقيب الباي، فاحمر وجهه، وكادت أن تفلت منه كلمات تقلب اللقاء الودي

رأسا على عقب، ففضل الصمت، وبلع الإهانة ليس خوفا وخشية، وإنما ما هم فيه من هم أكبر بكثير من المماحكات الشخصية، أخذ السيد حمدان نفسا عميقا ليبعد عن صدره التوتر وقال: كل ما أخشاه أن نقع جميعا في الفخ الذي وقع فيه الباشا حسين من قبل، فإن كنتم تجهلون كيف يفكر هؤلاء الفرنسيون فسلوني أخبركم، هم الآن يخوضون حربا مع الأمير عبد القادر وليست لديهم أدنى رغبة في تشتيت قواتهم، لكن إن حدث واتفقوا معه على مشروع سلام فسوف يتفرغون لكم، ولن تجدوا بعدها من يمد لكم يد العون، وإن سالمتموهم اليوم فسوف يتفرغون للقضاء على قوة الأمير ثم سيتفرغون لكم بعدها. لم يتمالك الباي نفسه وهو يستمع لهذا الكلام فقاطعه قائلا: يعني في جميع الأحوال نحن خاسرون.

قال: لا بالتأكيد لا، فإما أن تحاربوا معا أو تسالموا وتهادنوا معا، هذا هو رأيي.

قال محمد البجاوي: أفهم من كلامك أنك تنصحنا بالتحالف مع قوات الأمير..امتعض أحمد باي لسماع ذلك، فقال حمدان: وهل يحتاج هذا الأمر لنصيحة فأنتم تحاربون عدوا واحدا، ومن الطبيعي أن تتحالفوا أو على الأقل..نظر إلى الباي وهو يقول ذلك..أن تنسقوا مع بعضكم البعض، أو فليبع كل واحد سلعته كما يحب ويشتهي.

قال الباي: ما زلت أدين بالولاء إلى السلطان، ولن أقدم على أي خطوة دون استشارته وأخذ الإذن منه.

وأخيرا اتفقت الجماعة على رفض دفع غرامة الحروب السابقة، وقبول مبدأ دفع الضريبة السنوية، شريطة إخلاء الفرنسيين لعنابة، والاكتفاء بتعيين قنصل فيها، وموافقة السلطان العثماني على ذلك، عاد حمدان خوجة إلى العاصمة وهو يحمل موافقتهم المبدئية على العرض الفرنسي، لكن السلطان أبى عليهم ذلك، ومنعهم من عقد صلح مع الفرنسيين.

لم ينتظر الفرنسيون كثيرا، فبعد سقوط عنابة بقبضتهم، هاجموا مدينة بجاية، في عام 1833 فسقطت بدورها أمام الآلة العسكرية الفرنسية، وكان سقوطها بمثابة طعنة للباي، الذي استنجد بالسلطان العثماني، لكنه لم يأخذ منه سوى الوعود والدعوات، والأدهى والأمر كان في دخول باي تونس على خط التآمر مع الفرنسيين.

والذي حدث أن قائد الحملة الفرنسية الجنرال كلوزيل أرسل وفدا إلى باي تونس، يدعوه لنصرته والوقوف إلى جانبه ضد باي قسنطينة، وأغراه بتعيين شقيقه بايا عليها إن هو قبل بذلك.، وهدده إن لم يستجب لهذه الدعوة فلن تكون بلاده بمنأى عن نيران السفن الفرنسية.

لم يتأخر باي تونس حسين بن محمد عن تلبية الطلب الفرنسي، فقد استجاب لهم وزاد في ولائه لهم، وقد كان هو الذي منع رسو أحد المراكب العثمانية في الموانئ التونسية، الذي جاء لنقل حسين داي من الجزائر إلى إسطنبول لتجنيب الجزائر ذريعة الاحتلال، ثم هو الذي

بعث برسالة تهنئة إلى الماريشال الفرنسي دوبريمون بعد سقوط العاصمة واستسلام الداي حسين.

ظن أعيان قسنطينة وكبارها أن موقف باي تونس العدائي منهم، إنما يعود لوجود أحمد باي على رأس المدينة، فاتفقوا على إرسال وفد منهم إلى الباي يدعونه لنصرتهم، ولن يتأخروا عن حفظ ذلك له، وأنهم يثمنون صنيعه هذا لهم.

تلك كانت مؤامرة محمودة، قام بها محمد البجاوي وابن الفكون، لم يكن الهدف منها تجاوز الباي أو النيل من هيبته، لكنهم أرادوا الخير لمدينتهم وبلدهم مهما كان الثمن، فأرسلوا بعض شباب قسنطينة إلى باي تونس.

عندما علم حسين باي بقدوم الوفد الجزائري، اتهمهم بأنهم مخزبين ولصوص جاؤوا ليفسدوا في تونس، وقام بسجنهم وإعادتهم من حيث أتوا، وقد حمد هؤلاء الله تعالى على نجاتهم من قبضته، بعدما كاد أن يسلمهم للفرنسيين.

ولما عاد الشباب إلى قسنطينة وأعلموا كبارهم بما حدث لهم مع باي تونس، أدرك كبار قسنطينة ومشايخها، أن لا خير يرتجى من الترك، ولن ينفعهم إلا أبناء جلدتهم.

لقد كان الباي محقا في مواقفه المعادية للأتراك، وأن عليهم هم أنفسهم ألا يثقوا بعدها بتركي يجلس على كرسي المسؤولية، مع أن الحاج أحمد نصفه تركي، لكنه لم يرضع لؤم الأتراك وأنانيتهم وسفالتهم كذلك، إضافة إلى أن حاكم قسنطينة كان يعرف كما يقولون من أين تؤكل الكتف، فأثبت انتماء جزائريا أكثر من ولائه التركي، وقد زادت تلك الحادثة مع باي تونس في احترام كبار قسنطينة للحاج أحمد، وزادت في محبتهم له، أمّا الباي فقد ألزم نفسه بالاعتماد والتعاون مع العرب والأمازيغ الجزائريين فقط مهما جلب له هذا الأمر من متاعب، فكانت علاقته المميزة مع شيخ الإسلام مجلبة لولاء الحضر له، وكان زواجُه السياسي من ابنة الحاج عبد السلام المقراني، وزوجته الثانية ابنة باي التيطري

بومرزاق، سببا في ولاء القيّاد ورجال الصف لـه، وكـان مع هؤلاء من هم من أهل الحرب والفروسية أمثال أولاد مقـران في مجانـة، وأولاد ابـن قانـة أخوالـه في الزيبـان، وأولاد عز الدين من زواغة، وأولاد عاشور من فرجيوة.

كما أنّ ولاء ابن عيسىٰ ورجاله جلب إليه أهل زواوة الصغرىٰ والكبرىٰ بجيشهم القـوي وصـمودهم المثـالي، وأرسـل إلىٰ السـلطان يُعلـن لـه الـولاء ويطلـب التأييـد المعنوي والمادي، وراسل أهل إقليم الوسط يطلب مـنهم البيعة له، وقد اعتمد الباي في إدارته علىٰ رجال السـيف، مثل ابـن عيسـىٰ وابـن الحمـلاوي وابـن قانـة والمقـراني وغيرهم، وكلهم من رجال السـيف والحـرب، مـن إدارة الإقطاع الاقتصادي.

ولم يكن ذلك رأي البجاوي وابن الفكـون، لأن كـل الـذين التفـوا حـول البـاي كـانوا يمثلـون بنظـر النـاس العاديين فئة أرستقراطية متسلطة، ولم يكن لهم من القبول الشعبي ما يمكنهم من قلوب الناس.

رجع حمدان خوجة إلى قسنطينة ثانية، وكان يحمل اقتراحا أقل وطأة من الذي سبقه، ولم يصنع الفرنسيون ذلك محبة في الباي، أو رغبة في تخليهم عن بايلك الشرق، ولكن قوات الأمير عبد القادر تمكنت من تسديد ضربات قاصمة لهم، في الغرب والوسط وفي بايلك التيطري، وأكثر ما كان يخشاه هؤلاء أن يتحالف الباي مع قوات الأمير، أو يفتح عليهم جبهة حرب جديدة هم بغنى عنها، فحاولوا استدراجه لمسالمتهم، أو هم كما صرح قائد حملتهم لبعض مستشاريه، بعد أن نقضوا اتفاقهم مع السلطان العثماني بخصوص احتلال الجزائر، حيث كان مقررا أن يحتفظوا ببعض المدن الساحلية والموانئ لتسهيل تجارتهم، ثم يسلمون البلاد للسلطان من جديد، لكن وزير الحربية الفرنسي بالاتفاق مع قائد الحملة، أخلّوا بالاتفاق وتمسكوا باحتلالهم، الذي جاءهم على طبق من ذهب.

وإذن كما قال الماريشال دوبريمون لا بد من اللعب على وتر الفرقة والعصبية، سواء بين العرب والأتراك، أو بين العرب وبعض قبائلهم، وحتى مع الأمازيغ والعرب. كان شعارهم دوما، اضرب مسلما بمسلم، والتزم الصمت وتفرج عليهم.

وهكذا حضر بن خوجة وهو يحمل مقترحا معقولا، لكن الباي رفضه دون أن يطلع على بنوده، فطالما جاءته الأوامر من إسطانبول، أن لا تصالح وانتظر العون والمدد، فهو ينتظر، وقد فاته أن باي تونس الطامع في بيلكه قد أغلق عليه جميع المنافذ، وقد حاول حمدان خوجة ما بوسعه في إقناعه بضرورة التحرك بسرعة، وإن لم تكن عنده رغبة في السلام المعروض، فليتفق مع الأمير وليوجهوا حرابهم إلى صدر فرنسا، لكن الكبرياء الزائف والكرامة منعا الباي من الإقرار بسلطة الأمير.

قال حمدان خوجة وهو يغادرهم: في المرة المقبلة سوف يرسلون إليكم ضباطهم، وبعدها فرسانهم ومدفعيتهم.

قال الباي: ونحن هنا بانتظارهم.

ولم يكن السيد حمدان خوجة كاذبا أو مخطئا في نبوءته، فلم تمض أشهر قليلة حتى جاء إليه الفرنسيون بضباطهم أولا ثم بمدافعهم وفرسانهم ثانيا.

تأخر أحمد باي في مكتبه، فقد كانت تنتظره قضايا كثيرة ينبغي حلها، ما اضطره لتناول طعام الغداء مع مستشاريه ومعاونيه، وبعد أداء صلاة الظهر، عاد للاجتماع ببعض أعيان قسنطينة، بعدما وصلته أنباء غير مطمئنة تشير إلى تحركات فرنسية تتجه نحو الشرق، وكان يعتقد أن الفرنسيين انشغلوا عن المنطقة بسبب المعارك العنيفة التي خاضوها مع قوات الأمير عبد القادر في الغرب والوسط.

لم تجد تطمينات الباي لأصحابه قبولا ورضى، بل كانوا يشكون كثيرا في صدق توقعاته، كان يحدثهم بأمل كبير عن قرب وصول النجدة العثمانية الموعودة، فكانوا يسمعون ذلك وهم في شك منه كبير.

ولم يخف شيخ ديار الإسلام ذلك، بل قالها علانية للباي، إن رهانك على المساعدة العثمانية مجرد أوهام، وسوف تثبت الأيام ذلك.

كانت تلك لهجة جديدة لم يعتد الباي سماعها، لكنه كان لا بد له أن يسمعها، ومن أفواه الرجال المقربين منه، قال ابن البجاوي في إحدى الجلسات التي جمعته بالباي: أن ننصحك ونعاونك أفضل بكثير أن نضحك في وجهك ونخدعك.

تلقى ابن الفكون الجملة فأتمها قائلا: لو صدق السلطان في وعوده لضغط على باي تونس لكي يساعدنا لا أن يتآمر علينا.

أدرك الباي أن أصحابه يقولون الصدق، فما الذي يمنع السلطان من استخدام سلطانه على رعاياه؟ ثم إن وعود السلطان بقيت مجرد كلمات، ضاعت منهم مدينة عنابة وبعدها بجاية وهم ما زالوا ينتظرون.

لذلك آثر التزام الصمت، فلم يعد بإمكانه أن ينافح عن السلطان أكثر من ذلك، وهو شخصيا أوشك صبره على النفاذ، فلا هم يحاربون ولا هم مسالمون، ولولا هذا الكبرياء لتمرد حتى على الآستانة نفسها. وتابع البجاوي قائلا: إن الفرنسيس مشغولون حاليا بقتال جيش الأمير عبد القادر، لكن ما أن يتخلصوا منه أو يعقدوا معه أي صلح، فسوف يتفرغون لنا، وساعتها سنقول، لقد صدق ابن الخوجة لقد أخبرنا بالحقيقة التي رفضنا التسليم بها.

وتلك كانت هي الحقيقة التي كان الباي يخشاها، أو يتجاهل الإقرار بها، لكن لا مفر له من مواجهتها، لذلك اتخذ قراره وعزم أمره، يجب أن يراسل السلطان ثانية ثم يضع بعدها خططه، فلا يمكن الاعتماد على المجهول، ثم عندما تحين ساعة الحقيقة يجد نفسه وحيدا وربما طريدا، وهو الذي تخلى عن كل شيء، وخسر الجميع من أجل أن تستمر هذه المنطقة حية ومزدهرة.

كان الباي يشرح لأعيان قسنطينة طبيعة الموقف الذي تمر به البلاد، فسأله ابن الفكون عن حقيقة الموقف العثماني، لا سيما بعد تأخر وصول الامدادات التي وعد السلطان بإرسالها.

قال الباي: قد أرسلت إلى مولانا السلطان مراد مستفسرا ومستوضحا، وعندما يعود الرسول سوف تعرفون كل شيء.

وبينما هم يتحاورون، ويخططون، دخل عليهم الحاجب، فاستأذن الباي لحدث خاص، فطلب منه الباي أن يتحدث أمام الجميع، فليس لديه ما يخفيه عنهم، أعلمه الحاجب أن وفدا فرنسيا جديدا، وصل إلى المدينة وهم بانتظاره.

قال الباي: قد ذكرنا الهدهد فجاءنا الغراب..ثم قام من مقعده وطلب من الشيخ محمد البجاوي أن يرافقه، ففعل، ولما دخل عليهم، وجد أمامه ثلاثة ضباط فرنسيين، كان كبيرهم برتبة رائد، فتحدثوا مع الباي

بمكر ودهاء، قال الرائد ميشيل: قد رفضتم أكثر من عرض قدمناه لكم عن محبة وطيب خاطر، ولسنا نعرف حقيقة رفضكم، فربما لم يتمكن ذلك العربي..وسأل أصحابه وهويراوغ ويهين، ماذا كان اسمه؟..نعم حمدان خوجة، ربما لم يبلغكم رأينا على حقيقته.

قال الباي: بل أخبرنا وشرح لنا ورفضنا، نحن نرفض الصلح معكم ونرفض احتلالكم لنا.

قال الفرنسي: أحمل لكم تحية الماريشال دوبريمون، ويخبركم بأن عليكم الموافقة على طلبه، وهو يكره أن يرى النار والدماء في دياركم، وما عليكم إلا الاعتراف بسلطته، ودفع الجزية لفرنسا مقابل بقائكم سالمين غانمين منعمين في منصبكم.

أعلن الباي موافقته المبدئية كذلك، لكنه اشترط عليهم استشارة السلطان العثماني.

لما علم الحاكم الفرنسي بذلك، اتخذ قرار عسكريا بعزل أحمد باي من منصبه، وتعيين شقيق باي تونس،

مصطفى باشا بايا على قسنطينة، وكذلك عينوا يوسف المملوك واليا على عنابة، فأدرك الحاج أحمد خداع الفرنسيين له، وتآمر باي تونس عليه.

اجتمع الباي بأعضاء ديوانه فاقترحوا عليه أن يحمل لقب باشا، وأن يعتبر نفسه خليفة للداي حسين ويصك النقود باسم السلطان العثماني فاستجاب لرأيهم، وأبلغ السلطان العثماني بذلك.

بعد فترة من الوقت، وصل المبعوث العثماني كامل بك الى قسنطينة فجمع الحاج أحمد الديوان، وعرض عليهم المبعوث السلطاني أن يتفاوض السلطان مع فرنسا لابقاء قسنطينة تحت السيادة العثمانية، عندها أدرك الحاج أحمد استحالة وصول نجدات عسكرية عثمانية، وأن الأماني التي كان يمني بها نفسه تبخرت، في كلمة واحدة، فأعد ألف فارس وثلاثين مدفعاً للدفاع عن قسنطينة.

بدأت الاستعدادات الفرنسية الأولى لغزو قسنطينة منذ شهر سبتمبر 1836، حيث قام المارشال كلوزيل

بتعزيز قواته العسكرية الآتية من كل من الجزائر ووهران وبجاية وجعل مدينة عنابة نقطة التقائها.

وقد بلغ عدد القوات الفرنسية حوالي 8800 عسكري تم توزيعهم على 4 وحدات مجهزة بأحدث الأسلحة وبالمدفعية إلى جانب 14 قطعة حربية، وقد قاد هذه القوات الماريشال كلوزيل بمساعدة الدوق دي نمور والجنرالين تريزيل ودريني.

وصلت القوات الفرنسية إلى مشارف مدينة قسنطينة يوم 21 نوفمبر، فأقامت معسكرا، بعد أن قضت القوات الفرنسية ليلتها فيه واصلت زحفها نحو قسنطينة حيث عسكرت في المنصورة، وقسم الجيش إلى أربع فرق.

الفرقة الأولى والثانية تحت قيادة الجنرال تريزال، أقامت فوق منحدرات المنصورة، وذلك للهجوم على المدينة من جهة باب القنطرة.

الفرقة الثالثة والرابعة تحت قيادة الجنرال دريني، تقومان باجتياز وادي الرمال عند التقائه بوادي

بومرزوق، وفي المكان المسمى مجاز الغنم ومن ثم يتم صعود منحدرات باردو لاحتلال منطقة كدية عتي الإستراتيجية.

أما الحاج أحمد باي فقسم جيشه إلى قسمين رئيسين، وهم أعلم الناس بمنطقتهم.

فكان القسم الأول، وهو قسم ثابت بقيادة ابن عيسى، حيث وصل عدده إلى حوالي 2400 مجاهد موزعين على طول أسوار المدينة كدرع واقي.

أما القسم الثاني، وهو قسم متحرك، فكان تحت قيادة الحاج أحمد باي، وصل عدده إلى حوالي 5000 فارس و1500 رجل من المشاة، وقد كان هذا القسم مرابط خارج المدينة ويتابع تحركات الجيش الفرنسي خطوة بخطوة بهدف تضييق الخناق على الوحدات الفرنسية وفتح جبهتين أثناء الهجوم والدفاع.

غادر القائد ابن عيسى موقعه على رأس 100 رجل لكي لا يترك المجال مفتوحا أمام الفرنسيين للتمركز.

باشرت الوحدات الفرنسية بنصب الكمائن على منحدرات المنصورة.

نظرا لاندفاع القوات الفرنسية إلى الأمام، تمكنت من تسجيل خطوات طفيفة على حساب المقاومين الذين تراجعوا إلى باب القنطرة، لتنظيم الهجوم ضد الوحدات الفرنسية التي واصلت نصب الكمائن على منحدرات المنصورة.

تمكن المقاومون من ناحية أخرى من إقامة مخرج مفاجئ من باب القنطرة المحاصر، مما أحدث خسائرا فادحة في صفوف القوات الفرنسية.

في يوم 22 نوفمبر وقع تبادل إطلاق النار بين الطرفين بالبنادق والمدافع، أما خارج المدينة فقد كان الحاج أحمد باي يناوش مؤخرة الجيش الفرنسي التي لم تصل بعد إلى المنصورة، حيث ألحق فيها أضرارا كبيرة في العتاد والأرواح، ثم عاد بعدها إلى قسنطينة لتدعيم قوات قائده بن عيسى.

زاد التنقل المستمر للحاج أحمد بين قسنطينة وخارجها من قوة وعزم المقاومين الجزائريين، وأدى إلى زعزعة القوات الفرنسية وإرباكها.

استمرت المحاولات الفرنسية لاقتحام باب القنطرة وباب الحديد طيلة ليلتي 23 و 24 نوفمبر، إلا أنها فشلت نظرا ليقظة القائد بن عيسى وخبرته، حيث قام بتعزيز قواته الدفاعية في الثغور الموجودة على أسوار المدينة.

ظن الجنرال تريزيل أن مدفعيته تمكنه من تحطيم الباب، وما أن اقتربت القوات الفرنسية منه حتى بادر الجزائريون إلى إطلاق النار من كل جهة بسلاح المدفعية فتراجعت القوات الفرنسية باتجاه المنصورة، وعلى إثرها أمر الماريشال كلوزيل قواته بالانسحاب إلى عنابة.

غنم الجزائريون كميات كبيرة من العتاد الحربي منها حوالي 50 ألف خرطوش و4000 من الأدوات العسكرية الجديدة، وأدوات الهندسة العسكرية، إلى جانب المواد الغذائية من البسكويت والسكر والقهوة وكذلك الأدوية وعلب الجراحة.

قدرت الخسائر الفرنسية ما بين 700 و 900 قتيل، لقد كان الانتصار حليف الحاج أحمد باي وترك صدى كبيرا وعميقا ليس فقط على بايلك الشرق وإنما في الجزائر بأكملها، فجرى عزل الماريشال كلوزيل حيث تعرض لانتقادات لاذعة وحملته الحكومة الفرنسية المسؤولية الكاملة على هزيمة جيشها.

وقد أعد الباي حملة من ريف قسنطينة قوامها خمسة آلاف فارس و2500 راجل وتقدم بها الى وادي مبروك لملاقاة العدو ثم استدرجه إلى موقع مناسب وألحق به هزيمة فادحة ولاحقه بعد انسحابه إلى ماوراء قالمة.

وبعد هذا النصر، قرر السلطان العثماني إرسال النجدة على أربعة بواخر الى تونس، فما كان من باي تونس إلا أن استولى على المدافع الاثني عشر الموجودة على البواخر، ومنع الجنود الأتراك من عبور تونس إلى قسنطينة، بحجة أن فرنسا هددته بالهجوم على بلاده إذا سمح لهذه النجدة بالوصول الى الحاج أحمد.

لم يكن أحمد باي رجلا عصريا متوافقا مع زمنه، ولم تكن عنده رغبة في التغيير الحقيقي، بل ظل أمينا ومحافظا على التقليد الارستقراطي القديم، ورغم التغيرات الجذرية التي شهدها العالم من حوله، وفي محيطه الصغير، إلا أنه أصر على وفائه لعقلية لم تعد مجدية في زمن الغزو.

ولم يتمكن الباي من تحقيق انسجام مع مواطنيه، لاعتماده على طبقة مهترئة من الموظفين والعمال والقادة، وقد نصحه بعض أصحابه وأصدقائه بتغيير سيرته تلك، لكنه كان يسمع ويصغي ولا يعمل، وإنما يتجاهل دعوات الخير، لأنها في النهاية سوف تصب في مصلحة خصمه الأمير عبد القادر، فقد كان الأمير يمثل الشخصية النقيضة للباي، والحاج أحمد خير من يعرف ذلك، وإن كان يرفض الإقرار بذلك علانية، لكنه بينه وبين نفسه، لم يكن يخفي غبطته وحسده للشعبية التي وصل إليها الأمير، وهو الذي لم يفكر في ذلك، أو يسعى إليه.

لقد أتت الشهرة إلى الأمير تركض ركضا، بينما كان أحمد باي يجري وراءها وهي تفر منه، ولأنه بهذه العقلية، استفاد الفرنسيون كثيرا من الشرخ القائم بين إدارة الباي ومواطنيه، فلم تأت سنة 1837م حتى كانت قوة الحاج أحمد قد اعتراها الوهن والضعف، فاشتغل الباي نفسه بإطفاء حرائق بيته قبل الاشتغال بالتحضير ومواجهة العدو، في حين كان الأمير يسدد ضربات موجعة وفعالة إلى صدور المعتدين.

كما أنَّ الرجل قد حكم حوالي اثني عشر سنة واستَنْفَدَ كل طاقاته الإدارية والعسكرية، وكاد يصبح سجين عاصمته لا يخرج منها إلاّ خائفًا يترقّب، فقد عزل نفسه قبل أن تعزله الحملة الفرنسية، وكان بعيدًا كل البعد عمّا نسميه اليوم بالقاعدة الشعبية، لا يختلط بها ولا يشاورها ولا يعيّن الرجال منها، ولا يستثيرها بعاطفة جديدة كالجهاد والوطنية، بل كان يكرر شعارات قديمة أكل عليها الدهر، وهو أنه رعيّة من رعايا السلطان

العثماني، وهي دعوة قد تنفع في القرن السادس عشر ولكنها لم تعد تجدي نفعًا سنة 1837م.

لقد ملَّ كثيرٌ من الناس ظلمَ العثمانيين وجمودهم على حالة واحدة، ونظرتهم الارستقراطية والمستبدة، وابتزازهم للمال دون تقديم بديل يحمل فائدة ومنفعة.

كان محمد البجاوي قد تلقى مع أصحابه رسالة من الأمير عبد القادر دعاهم فيها صراحة إلى خلع الباي والانضمام لدولته، وقد كانت لدى الجماعة القسنطينية رغبة في التحالف مع الأمير، لكنهم لا يمتلكون الشجاعة الكافية لصنع ذلك، ليس خوفا من الباي وخشية من غضبه، وإنما هو خوفهم من المجهول الذي يتربص بهم، ومن الفرنسيين الذين يستغلون أي ثغرة للنفاذ منها إلى قلب المدينة.

وهم يعرفون أن قسنطينة لم تغب لحظة عن بال الفرنسيين، فبعد سقوط عنابة وبجاية أحكموا حصارهم لقسنطينة، ثم حركوا بعد ذلك جيشهم من العاصمة نحو الشرق، ما يعني أن الحرب أصبحت على الأبواب.

كان الفرنسيون يتميزون غيظا من عناد الباي وصلابته، الذي رفض كل عروض الصلح التي قدموها له، فجعل منهم أضحوكة لقوات الأمير، لذلك كان إصرار الجنرال دي بورمون وجميع قادته على تحييد الباي، ليتفرغوا تماما للأمير، ولما رفض الباي عروضهم، وافقوا على عقد معاهدة للصلح مع الأمير عبد القادر، وهي معاهدة تافنة، ثم تفرغوا بعدها للباي العنيد على حد قولهم.

وكان المجرم الدوق دورفيقو قد كتب إلى وزير الحربية الفرنسية انطباعه عن الحاج أحمد باي، إن هذا الباي ليس كما اعتقدت عندما قدمت للجزائر من أنه شخص لاقيمة له، بل هو على العكس من ذلك يعد صاحب الولاية الأكثر نفوذا وقوة بها.

قام الفرنسيون بآخر محاولاتهم لاستمالة الباي إلى جانبهم، أو على الأقل تحييده واجتناب الاصطدام به، فأرسل الجنرال ديمريمون إليه في أحد أيام شهر سبتمبر اليهودي بوجناف، وعرض عليه الصلح، بشروط مغرية

يسيل لها لعاب كثير من الحكام الصغار، وكان موضوعه الاعتراف والخضوع للسلطة الاستعمارية، مقابل حكم مستقر واعتراف بسلطة الباي، وإطلاق يده في بايلك الشرق، إلا أنه رفض ذلك بشدة.

دخل بوجناف إلى مكتب الباي، وهو يعلم أن مطرا من البصاق يلاحقه من الخلف، لكنه يؤمن بالمادي الملموس ولا تعنيه الشتائم كثيرا، قال وهو ينحني أمام الباي بتذلل: لا يسعني إلا أن أقدم لكم بالغ تحيات جنرالات فرنسا في الجزائر، وتحياتي وإعجابي الشخصي بحضرتكم... كان الباي يستمع إلى هذه الديباجة الكاذبة بضيق صدر وتوتر، ولولا العيب، لبصق هو بدوره في وجه هذا المخادع، الذي كان قبل سنوات يبيع ويشتري كواحد من الجزائريين، بل أفضل منهم في كثير من الأحيان، وتمكن من إقامة علاقات مميزة مع أعيان العاصمة وكبارها، وفي المدن الأخرى، وهاهو اليوم يأتي باسم الجنرالات ليعقد صلحا، هو أول من يعلم كذبه ونفاقه.

ثم أخذ بشرح عرضه الفرنسي أمام الباي، ويزين له ما سيجنيه من رخاء وازدهار للبايلك وله شخصيا، إن هو وافق على هذا العرض، ولم يجد الباي من ذريعة يحتج بها لرفض مقترح الصلح، سوى أنه لا يعترف بسلطة المستعمر، ولو حمل هذا العرض ابن الخوجة لوافق عليه على الفور، ولكن هذا الخبيث لن يحمل الخير أبدا، كما همس بذلك في أذن مستشاره ابن عيسى.

ولما يئس بوجناف من سماع ما يرضيه، قال بخبث: كل ما أخشاه أيها المحترم الحاج أحمد باي، أن يغضب منك الفرنسيون الذين كما تعلم عقدوا معاهدة صلح مع خصمك وعدوك الأمير عبد القادر وأنتم أكثر من يعلم ما تخفيه معاهدة تافنة لكم من نتائج سلبية ومرعبة.

قال الباي: ومن الذي أخبركم أنني أحمل عداوة شخصية للأمير عبد القادر، ثم جميعنا نحمل نفس القدر من العداوة لفرنسا الفاجرة المعتدية، وتلك هي المرة اليتيمة التي يعترف أو حتى يذكر فيها الباي الأمير

بصفته، وقد صنع ذلك لإغاظة اليهودي المتفرنس أكثر منه حبا أو اعترافا بإمارة الأمير.

قال بوجناف ردا على هذه الإهانة المبطنة: أرجو أن تسمحوا لي بالتجول في أسواق قسنطينة، فقد اشتقت لمدينتكم الجميلة، وكلي أمل ألا أغادر السوق إلا وأحمل منكم خبرا طيبا يجنب مدينتكم ويلات الحرب وشرورها.

رفض الباي عرض فرنسا الأخير، وكان الجنرال داميمون قد حضر نفسه لسماع مثل هذه الإجابة.

أعد الفرنسيون جيشا ضخما يتكون من 11 ألف جندي ودعموه بضباط سامين ذوي خبرة في الميدان العسكري، أما الباي فقد كسب دعم بعض القبائل الجديدة، مثل الحنانشة في سكيكدة القل، كما دعمته قبائل أخرى، كانت متمردة على الحكم التركي، لكنهم نسوا صراعاتهم أمام هذا الخطر الأجنبي.

حاولت فرنسا ضرب وحدة الصف الجزائري، حيث أرسل قائد أركان الحرب الفرنسي برقية في عشية 11

أكتوبر 1837 إلى سكان مدينة قسنطينة يطالبهم بتسليم أنفسهم ومدينتهم، ثم وزعوا مناشير، تطمئن السكان إلى حسن نوايا فرنسا، وأنها جاءت مخلصة ومحضرة لهم، ولا يوجد بجعبتها إلا كل الخير لهم.

رد أعيان قسنطينة على الرسالة الفرنسية، برسالة أخرى كتبوا فيها ما يرونه حقا وصدقا، جاء في الرسالة القسنطينية ما نَصُّه:

من الأمّة المحافظة على شرفها وبلدها إلى العسكر الفرنساوي المعتدي على حقوق غيره، قد وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها، نعم إنّ مركزنا أمسى في خطر عظيم، ولكنّ استيلاؤكم على قسنطينة المحمية بالأبطال العربية الذين لا يهابون الموت، موقوفٌ على قتل آخر واحد منهم. واعلموا أنَّ الموت عندنا تحت أسوار بلدتنا أحسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا.

كما حرر الحاج أحمد باي بيانا جاء فيه: "إذا كان المسيحيون بحاجة إلى بارود سنزودهم، وإذا نفد لهم

الخبز سنقتسم خبزنا معهم، ولكن ما دام أحدنا على قيد الحياة لن يدخلوا قسنطينة ".

بعد توقيع معاهدة التافنة، وصلت الاستعدادات الفرنسية لشن حملة ثانية على قسنطينة منتهاها، فجنّدت في سبيل ذلك إمكانياتها العسكرية على النحو التالي:

- عين الجنرال داميمون قائدا للحملة خلفا للماريشال كلوزيل، فبادر بإقامة المعسكرات على طول الطريق المؤدي إلى قسنطينة انطلاقا من عنابة و كانت على النحو التالي :

- معسكر درعان .
- معسكر النمشية .
- معسكر حمام باردة .
- معسكر مجاز عمار الذي جعله الفرنسيون نقطة الانطلاق لجل العمليات العسكرية على قسنطينة، كما استعانت الجيوش الفرنسية بقوات إضافية من وهران والجزائر بحيث تمركزت معظمها في معسكر مجاز عمار .

بلغ عدد القوات الفرنسية المجنّدة في هذه الحملة حوالي 13 ألف جندي، قسموا إلى 4 فرق عسكرية تحت قيادة الجنرال دامريمون بمساعدة الدوق دونمور ابن ملك فرنسا الجنرال فالي وكذلك الجنرال تريزيل .

وضع الجنرال دامريمون خطة عسكرية محكمة واضعا بعين الإعتبار الأخطاء التي وقع فيها الجنرال كلوزيل، وشملت خطته النقاط التالية:

إقامة مراكز عسكرية عديدة على الطريق المؤدي من معسكره إلى قسنطينة والهدف من ذلك ضمان نجاح الحملة بأقل تكاليف .

ثم يبدأ الهجوم مباشرة عند الوصول إلى قسنطينة من ناحية باب القنطرة والكدية، على أن تركز قوة كبيرة على نقاط ضعف الدفاع بفتح ثغرة في أسوار المدينة .

واجه أحمد باي الموقف باستدعاء أعيان الإقليم ورؤساء القبائل وأخبرهم بالخطر الذي يحدق بهم وبعواقب الحملة إذا لم يوفر لها مختلف الإمكانيات البشرية والعسكرية لمواجهتها.

كما بادر إلى تنظيم صفوفه تنظيما محكما، وقام بمحاولات فاشلة للهجوم على معسكر مجاز عمار مركز تجمع القوات الفرنسية .

إضافة إلى ذلك اتخذ عدة إجراءات وقائية، مثل قيامه بتهديم المباني التي كان قد شيدها من قبل صالح باي، وذلك راجع إلى كون هذه المباني كانت عبارة عن ثغرات خطيرة، استعملها الفرنسيون إبان حملتهم الأولى، قصد التوغل داخل المدينة حتى يتجنبوا نيران بنادق المدفعيين الجزائريين .

وأزال كذلك المباني الموجودة على حدود المساحة الواقعة بين باب الوادي وباب الجابية واستبدالها بحصون قوية، كما أدخلت ترميمات على باب الجديد ودعمه بقوات دفاعية.

وبهذه الترتيبات استطاع الحاج أحمد باي أن يجهز جيشا قدر عدده حوالي 12 ألف جندي نظامي و 10 آلاف من المتطوعين فخصص منهم حوالي 3000

للدفاع من داخل أسوار المدينة تحت قيادة ابن عيسى في حين تولى بنفسه الفرق المتحركة المقدرة بحوالي 7000 فارس و2000 جندي من المشاة بغرض القيام بهجمات سريعة على طول الطريق المؤدي إلى قسنطينة وهذا لخلق حالة من البلبلة والفوضى في صفوف القوات الفرنسية.

وعمل على محاصرة القوات الفرنسية عند وصولها إلى قسنطينة بين قواته التي تهاجم من الخلف وقوة ابن عيسى التي هي في حالة دفاع.

في 7 أكتوبر 1837 انطلقت المعركة بين الطرفين، حيث قام الحاج أحمد باي بتدعيم دفاعه، فأمر قواته المرابطة خارج المدينة بالإلتحاق بالقوات الداخلية، وذلك في إطار خطة محكمة تسهل له مهمة الهجوم على القوات الفرنسية، فبادر بالهجوم على التجمعات العسكرية الفرنسية من جهة المنصورة وكذلك منطقة الكدية، وخلّف هذا الهجوم العديد من القتلى والجرحى في صفوف الفرنسيين.

وهذا ما جعل الفرنسيون يعززون صفوفهم بإقامة خط دفاعي مزود بـ 9 مدافع مقسمين على النحو التالي :

-أربعة في المنصورة منها مدفع واحد على العقبة .

- خمسة في منطقة الكدية.

وأمام هذا الوضع أقام الحاج أحمد أكثر من 30 مدفعا على كامل أسوار المدينة من باب الجديد إلى باب الجابية، ومجموعة أخرى في باب القنطرة وحوالي 12 مدفعا في القصبة، كما خصصت 4 مدافع أخرى للتصويب نحو المنصورة.

دارت رحى المعركة عنيفة قاسية، وكان جميع أعيان قسنطينة في الصفوف الأمامية، يحرضون الناس على القتال، ويستحثونهم طلبا للنصر أو الشهادة، وقد أبلى ابن البجاوي بلاء حسنا وطيبا، فهو الذي حثّ أهالي قسنطينة على الدفاع عن أنفسهم وحريمهم وأولادهم وحرِّضهم على الجهاد والذوذ عن البلاد.

أخذت الكفة تميل لصالح جيش قسنطنية، خاصة عندما تلقى المشرفون على المدفعية وعلى رأسهم علي البومباجي، تعليمات محددة بقصف مكان تجمع الضباط، فشرع مباشرة في قصف القصبة ومنها ضرب تجمع الجنرالات، فقتل على إثرها الجنرال داميمون قائد أركان القوات الفرنسية والقائد بريقو، فعمت الفوضى والاضطراب بين صفوف الفرنسيين.

استغل الحاج أحمد باي هذه الظروف وقام بهجوم شامل ضد الفرنسيين، على إثر ذلك سارع الضباط المتبقون إلى تعيين الجنرال فالي قائدا لأركان الحرب، وفي 13 أكتوبر 1837 تمكنت الفرقة الثالثة بقيادة كوربان من دخول المدينة من ناحية باب السويقة حيث دار القتال في الشوارع والأزقة أسفر على سقوط المدينة يوم الجمعة 1837/10/13، وانسحب الحاج أحمد باي وأتباعه لتنظيم صفوفهم أملا في مواصلة المقاومة.

استمر القتال نحو خمسة أيام عصيبة ودامية، تمكن فيها أهالي المدينة بقيادة الحاج أحمد باي، من قتل معظم قادة الحملة ومنهم الجنرال بريكو، والكمندان كومب، والقائد فمبه دمبريني، وجرحوا القائد الشهير لامورسيير جرحًا بليغًا أعجزه عن القيام والحركة، ووقع الألوف من العسكر الفرنسي قتلى وجرحى، وقد اعتبر الفرنسيون تلك المعركة من أسوأ معاركهم مع الجزائريين.

سقطَ الحاج محمد بن البجاوي، قائد الدار، شهيدًا أثناء الدفاع عن المدينة، واختفى الحاج أحمد ووزيره علي بن عيسى، وقد حاول الفرنسيون جهدهم القبض عليه لكنه اختفى دون أن يعثروا له على أي أثر.

لم تهدأ عزيمة الباي ولم تمل نفسه القتال، ولم تنل منه هذه الهزيمة المرة، فلجأ إلى الأوراس محرضا الناس على المقاومة ومتابعة القتال، ولم تكن القبائل التي لجأ إليها أحمد باي بعد سقوط قسنطينة، تدفع الضرائب للعثمانيين، ومع ذلك قبلت الدفاع عنه ضد الفرنسين في الوقت الذي كان ينتظر المدد والغوث والمدافع من السلطة

العثمانية وعندما لم تصل هذه المدافع، فإنه لجأ إلى شرائها عن طريق الصحراء الليبية، غير أن السلطة الفرنسية مدعمة من باي تونس فرضت عليه حصارا مشددا، ومنعت وصول السلاح إليه.

وكان الخذلان من الباب العالي، الذي عوض أن ينصره في مقاومته، أرسلوا إليه من يطلب منه الانسحاب عبر طربلس.

وقفت بعض القبائل ضد المقاومة، خاصة التي تولى قيادتها يوسف المملوك أو التي تزعمها فرحات بن سعيد، ثم انضم صهري بن قانة إلى فرنسا، وكذلك بعض العائلات الكبيرة في قسنطينة.

لكن القوات الاستعمارية لم تجد بدا من احتلال قسنطينة باعتبارها همزة الوصل بين جميع المناطق الساحلية، ولعب الخائن ابن المملوك دورا رئيسيا في تأليب الفرنسيين على الباي أحمد، فقد كانت له بعض العيون في المدينة التي تنقل له أخبار ما يحدث داخل أسوارها.

كان عزاء أحمد باي أمام نفسه، أنه بذل ما باستطاعته للقتال، لكن خذلان الجميع له، جعله قائدا ثوريا مطاردا، وكان يحدث نفسه ندما بعد ذلك، لأنه راهن على حصان خاسر.

لم يصدق الباي أن السلطان خذله وباعه بثمن بخس، وهو الذي قاطع الجميع من أجله، وأولهم الأمير عبد القادر، ثم باي تونس الجديد مصطفى، كان خائنا ومتواطئا، لدرجة لم يصدق الحاج أحمد أن أحدا سيفعل ما فعل.

اتخذ موقعا له بين جبال الأوراس، بحيث يطل على مدينته، فأخذ يتنسم ريحها من بعيد، وقال لمستشاره الأمين ابن عيسى: هل تشم ما أشم؟.

حرك ابن عيسى أنفه بحركة مضحكة وأخذ يتشمم ما حوله، ثم قال: أي رائحة يا سيدي؟.

قال الباي: إني أتشمم الريح الآتية من هناك من قسنطينة، رائحتها نجسة خبيثة، ما الذي يصنعه الكفار هناك.

أدرك ابن عيسى أن بايه يشعر بالغربة والمرارة، ثم سمعه يقول: أين أخطأنا يا ابن عيسى؟ لماذا طاردنا سوء النحس والطالع.

قال: بل بذلنا ما باستطاعتنا يا سيدي، والجميع يثنون على صنيعك، لقد تمكنا من مواجهتهم منفردين، وليس بالإمكان أفضل مما كان كما يقال.

لم يقتنع الباي بإجابة قائد جنده ومستشاره، فقال: هل تعتقد أن ابن محيي الدين كان سعيدا بهزيمتنا؟.

لم ينتظر ابن عيسى مثل هذا السؤال، إذ مهما كانت إجابته عنه سوف تكون نفاقا وكذبا، فتجاهل السؤال برمته، وفضل الصمت، فسمع الباي يقول بصوت كسير ومنخفض: لولا تلك المعاهدة لما تجرأوا على قتالنا.

ثم أجاب نفسه، كأن أحدا لا يسمعه، فهو بصدد القيام بجردة حساب مع نفسه، لكن ابن محيي الدين قاتلهم بشراسة، بينما كنا نحن إما نتعارك أو نتفرج، لا ينفع الندم نعم أي نفع لاجترار الماضي الذي لم يكن..لكن ذلك اليهودي بوجناف يستحق قطع لسانه قبل رأسه، إيه يا قسنطينة العزيزة ماذا صنع بك الكفار، لقد هزمناهم وقتلنا قادتهم فكيف تمكنوا منا بعدها؟ هذه فاتتني، ليتني أعرف ما الذي يجري فيها حاليا، إن رائحتها نتنة.

كان الباي يعرف ما يقول، لكن من يسمعه سوف يقسم أنه ينصت لرجل مختل عقليا ولم يكن ذلك حال الباي، فقد أتته الخديعة من أهلة وأقرب الناس إليه، لقد خدعه أخواله.

قال الباي: أستغفر الله العظيم من كل ذنب رجيم، كاد ابن عيسى أن ينفجر ضحكا من هلوسات سيده أو تداعيات نفسه، ثم أكثر الباي من الاستغفار، وفجأة قال: طبعا لن أستسلم ولن أعترف بالهزيمة، فالحروب

يوم لك ويوم عليك، أليس كذلك يا عنترة، ثم أخذ ينشد شعرا:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوىٰ

فلم يستبينوا الرشد إلا ضحىٰ الغد

ذلك حالي معكم أيها القوم، سوف أقاوم وأقاوم، فلست جبانا كالداي حسين الذي رفع طربوشه وهرب، وانفجر الباي بالضحك وهو يتذكر وجه الداي البائس عشية استسلامه.

أصر الباي علىٰ مواصلة القتال ولم يقبل النصائح التي انهالت عليه تطلب منه مغادرة البلاد والالتحاق بالدولة العثمانية، فجمع ما بقي من مساعديه واقترح عليهم تشكيل زمالة، أي عاصمة متنقلة كعاصمة الأمير عبد القادر، والسير نحو الجنوب في حين يبقىٰ هو وبعض جنوده متمركزين مابين عنابة وقسنطينة لقطع حركة المرور علىٰ الجيش الفرنسي، وبالتالي منع الامدادات والمؤونة من الوصول إليهم، وقد وافق المجتمعون علىٰ

ذلك لكن بوعزيز بن قانة خال الباي غدر به، وأخبرهم أن فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان، وقد صنع ذلك للخلاص من ابن أخته وليتمكن من الإستيلاء على أمواله.

اتجه الباي إلى الأوراس وبعض مناطق الصحراء ميدانا للجهاد ضد الجيوش الفرنسية وبقي يطالب السلطان العثماني بالمساعدة لكن هذا الأخير اكتفى بالوعود مما اضطر الباي لتوجيه رسالة قاسية جاء فيها "بادروا بإمداد أهل الإيمان بالمساعدة ونصرة أمة الإسلام وعندما يعاتبكم الله يوم الحشر، سوف تسألون عن ضياع هذه الولاية فماذا سيكون جوابكم.. هل لكم أهل وغرض في الحفاظ على دين الإسلام في هذه الديار، فإن كان كذلك لتكن عندكم همة وعزيمة لمساعدة المسلمين..إننا من أهل الإسلام ولم تعاونونا بمقدار ذرة فقد أصبح من المحقق أن ينال الكفار مبتاغهم".

فكر الحاج أحمد بالخروج بقواته الى الجنوب حيث وسائل الحماية متوافرة، ولكن خاله ابن قانة خدعه وغرر به للاستيلاء على ثروته، في هذه الأثناء تلقى عرضاً من الفرنسيين بالاستسلام والذهاب إلى فرنسا، فرفض العرض.

راسل الحاج أحمد السلطان العثماني بعد هذه الأحداث ولامه على تأخر النجدة العسكرية الموعودة، وبقي الحاج أحمد في النمامشة حتى شن عليه الجيش الفرنسي حملة في ماي 1838 وتعرض في هذه الأثناء لمؤامرات من عملاء فرنسا في الجزائر وفي تونس، وعلى رأسهم خاله ابن قانة، وتحرك من وادي ريغ الى النمامشة ثم إلى جبال الأوراس، وهاجم بسكرة سنة 1843 ولجأ إلى أولاد سلطان وغيرهم من القبائل في المنطقة الصحراوية، وبقي في جبل أحمر خدو حوالي عامين، ثم طلب الاستسلام من قائد القوات الفرنسية في بسكرة.

واستسلم لحاكم باتنة الفرنسي الذي استقبله بحفاوة في الخامس من جوان 1848 ونقل إلى الجزائر العاصمة

بعد عشرة أيام حيث استقر فيها ينتظر الإذن لـه بـالهجرة إلى المشرق العربي، ولكن السلطات الفرنسية لم تلب طلبه ومات في الجزائر العاصمة سنة 1850.

فشلت مقاومة الحاج أحمد لعدة أسباب أهمها تآمر باي تونس وقادة القوات التركية في قسنطينة، ولـذا كـان معظـم وقتـه وهـي ثـماني عشـرة سـنة يقاتـل خصـومه الجزائريين والتونسيين أكثر من قتاله للفرنسيين.

شهدت سنة 1837 طلوع نجم وأفول نجم، أحدهما يمثّل المستقبل والثاني يمثل الماضي.

ولقد صدق فاليه عندما حـذّر حكومتـه مـن الخطـر الذي يمثله عبد القادر ولا يمثله الحاج أحمد، عندما كتب من الجزائر إلى وزيره للحربية يقول له: إنَّ الباي لـيس لـه سوى قوة غير دائمة، وهو ليس باعثًـا للقوميـة العربيـة، كالأمير عبد القادر، "وهي القومية التي ستقلب أوضاعنا ظهرًا على عقب، وتجعلنـا نـرى مؤسسـاتنا مهـددة بهـذه

القوة الجديدة مستقبلاً، بل وتجعلنا نعبر البحر من جديد عندما تتطور وتتقدم نحو الحضارة.

لقد كان الأولى بالحاج أحمد، على الأقل بعد سقوطه، أن ينضم للجهاد تحت لواء الأمير، أو يوصي من بقي له من أتباع بالإنضواء تحت لوائه، إذا كان هو لا يستطيع ذلك، ولكنه العناد والكبر الذي جاء في غير محله ولم يكن له أي مبرر، فاستمرّ على ركوب رأسه في عدم الخضوع لابن محيي الدين، كما كان يُسمّي هو الأمير حتى سنة 1838، وقد قال مرة ثانية لوزيره السابق، علي بن عيسى "أنه لن يخضع للأمير لأنه لن يستطيع، في نظره، أن يصبح أميرًا بالفعل ولو وصل إلى السماء.

وفي الوقت الذي كان الحاج أحمد يطلب فيه المعونة من جيرانه ومن السلطان العثماني، كان يرفض مجرد التعاون مع الأمير وخلفائه في الأوراس، فقد وصلته رسالة من الأمير سنة 1838م ورسالتين أخريين لأصحابه الذين كانوا معه، وهي جزء من حوالي مائتي

رسالة كان الأمير قد وجهها إلى أعيان الناحية الشرقية يطلب منهم فيها التعاون وتوحيد الجهاد ضد العدو المشترك، ولكن الحاج أحمد رأى في ذلك حطًّا من قيمته، وتعهد لصديقه علي بن عيسى بأن لا يفعل ذلك مطلقًا.

أطلبوها من الناشر



أن تقرأ التاريخ كأنك تراه وتسمعه، أفضل بكثير من قراءته السردية الجافة، أن تعيش أحداثه وحكاياته سوف تتملكك عندها المتعة وحب المعرفة، ويأخذ الفضول بتلابيب عقلك، وغير ذلك قد ينفرك ويجعل من متعة المطالعة مجرد درس تكرهه، "روايات تاريخ الجزائر" تحمل معنى رئيسيا، وهو أن تقرأ التاريخ كأنك أحد صناعه والفاعلين فيه، تطالعه رواية شيقة وليس مجرد أحداث وتواريخ تدفعك للسأم.

الناشر

إ.ق: 2977 - 2015

منشورات الأنيس
تعاونية العلم رقم 17 جنان عشابو - دالي ابراهيم - الجزائر
الهاتف : 58 02 29 023 الفاكس : 57 02 29 023
النقال : 84 08 57 0661 / 48 05 54 0661
elanisedtions@hotmail.fr

توزيع : دور المعرفة
67 30 64 0560